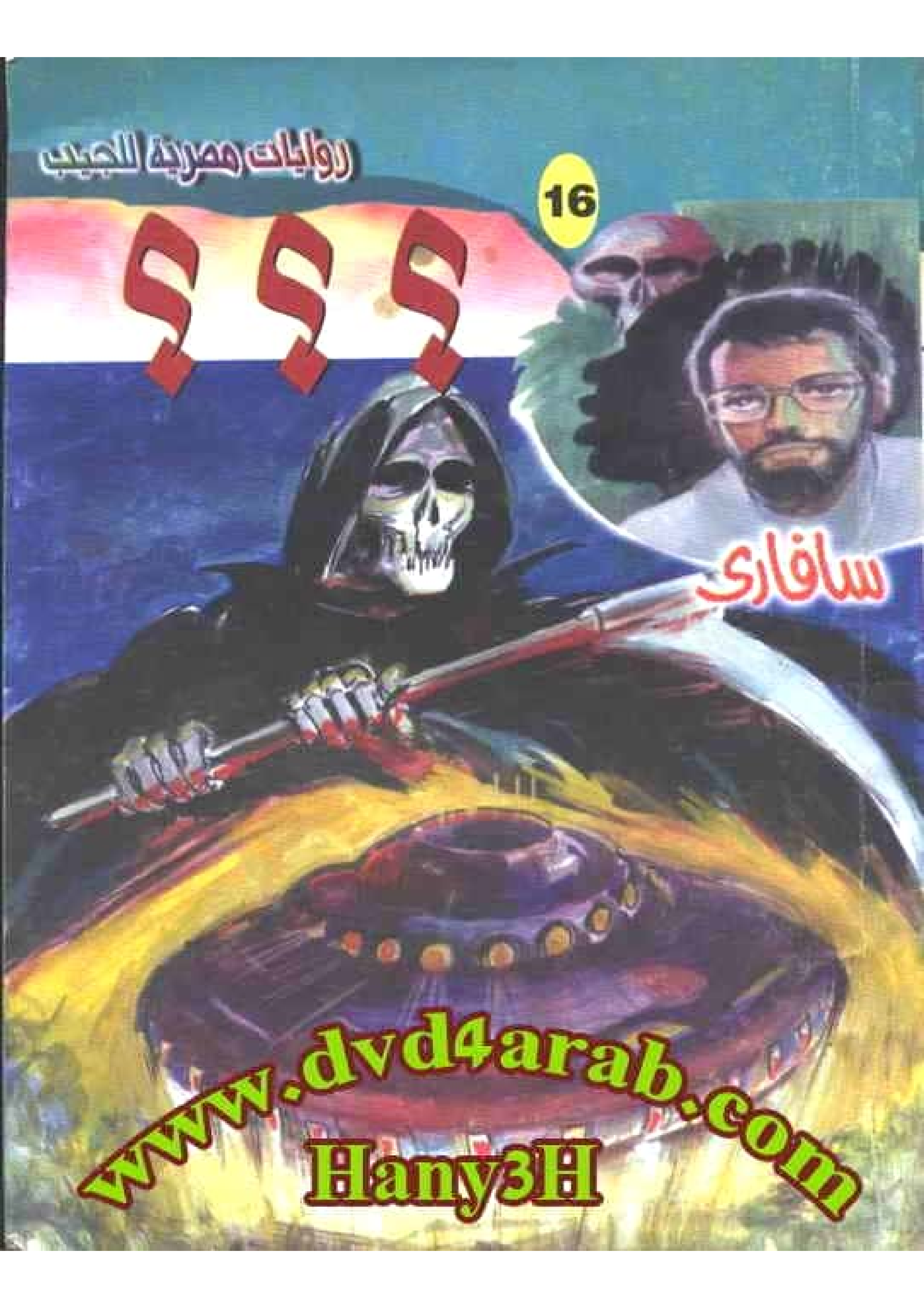

روايات مصرية للجيب
16
؟؟؟
سافاري

مقـــدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمـة (سافريَة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عـن رحـلات صـيد الوحوش فى أدغـال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كـانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنـا الذى سنقابله دومًـا ، ونألفـه ، ونتعلـم أن نحبه هـو د. (عـلاء عبد العظيم) .. شـاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاتـه بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفـى بيئـة غريبـة وأمـراض أغرب وأخطار لاتنتهى فى كل دقيقة ..

وفـى هذه الروايـات نقرأ مذكرات د. (عــلاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضـارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لايمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون)..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..



١ ـ لماذا مات ؟

طبق طائر قرب (سافارى) .. من سمع عن أسخف من هذا ؟

* * *

أقسى ما تقارفه الضحية هو أن تغدو جلادًا ، خاصة لو كانت تعرف يقينًا أنها ستكون جلادًا ..

ما علاقة هذا بقصة اليوم ؟ لست متأكدًا ، لكنه قول يوحي بالعمق والحكمة ، فمن منا يا سادة لا يحب أن يبدو عميقًا حكيمًا ، ولو للحظات ؟ إن هذا منعش فى بركة الغباء والحمق التى نعيش فيها كل يوم حتى الذقون ..

* * *

هذه هى وحدة (سافارى) ..

لابد أنكم الآن لن تضلوا الطريق فيها ، بعدما عشتم داخلها خمس عشرة مرة .. لابد أنكم تعرفون هذا المدخل المفضى إلى الاستقبال ، وهذه الردهة التى تقود إلى مكتب المدير . هنا المعمل حيث تنتظرنى (هيلجا) لتجرد عظام ساقى من لحمها ، وهنا يتربص (باركر)

نائب المدير ليخرب بيتى بشكل ما ، وهنا مقلب جديد ينتظرنى من (أبرهام ليفى) .. هنا تستعد (برنادت) بضحكتها الصبوح التى (تصنع يومى) كما يقول الإنجليز ، وهنا (بودرجا) المذعور دائمًا الشاعر بالغبن أبدًا ، يحمل لى آخر أخبار الأرواح .. (بسام) الأنيق اللامع دائمًا كأنما فرغ فورًا من حمام منعش ، و (آثر شيلبى) العظيم ـ المشكلة أنه أكثر من يعرف هذا ـ يقف بالغليون فى فمه ، متقمصًا شخصية بارونات الطب العظام من القرن الماضى ..

وهؤلاء هم المرضى .. وأنتم قد لاحظتم أنهم يحملون نفس السمات تقريبًا .. فى (مصر) كنا نعرف مريض الكبد على الفور وهو على مدخل المستشفى ، وكنا نعرف الطفل الذى لم يأكل ولم ينم منذ سنتين .. هنا يمكنك بسهولة بالغة أن تحدد مريض الملاريا ومريض الكالا آزار بمجرد رؤيته .. المشكلة هى أن أمراض الحضارة عرفت سبيلها إلى هؤلاء القوم ، وصار لديهم مرض السكر وانسداد الشرايين التاجية ، بالإضافة إلى هدية (سان فرانسيسكو) الغالية التى لن ينساها العالم أبدًا : الإيدز ..

وهذا أنا .. العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير : (علاء عبد العظيم) .. كما ترون ، فإن وجهى مازال كما

هو .. وإن ظهرت بعض شعيرات بيضاء في مفرقي .. كلا .. ليست علامة شيخوخة .. لا تقولوا هذا .. لقد ورثت الشيب المبكر من أبى ، وهو الذى كان رأسه بلون الثلج فى سن الثلاثين . ليس لهذا علاقة بتوترى ولا حنينى إلى البيت ، ولا كل الأهوال التى أراها كأنما لم يعد طبيب سواى فى (سافارى) كلها ..

يقولون إننى وسيم .. إحداهن قالتها لى ـ ولم تكن هى المطلوبة للأسف ـ فاحمرت أذناى كالأطفال ، ورحت أعبث بطرف حذائى فى الأرض .. ربما كنت كذلك أو لم أكن .. لكننى (رجل امرأة واحدة) ، وهذه الواحدة ـ كما تعلمون فأنتم لم تعودوا أغرابًا ـ لم تظهر لى أكثر من الصداقة ولا يبدو أنها ستتغير مع الزمن ..

يقولون إننى سريع التعلم وبارع .. أنا متأكد من الصفة الأولى ، لكنى أجد عسرًا بالغًا فى تصديق الصفة الثانية . أنا بارع ؟ لا أعتقد .. والدليل هو الموقف التالى ..

★ ★ ★

رأيت الشاب فى الثانية بعد الظهر ، وتوفى بعد هذا بيومين ..

بالطبع لم أكن أعرف ولا هو كان يعرف ، وإننى

لأتمنى لو عاد الزمن إلى اللحظة التى كان ينبض فيها بالحياة كى أدقق ، وأجيب عن كل الأسئلة التى أطرحها على نفسى الآن فلا أظفر بإجابة ..

اسمه (أحمدو ميتابوا) .. السن عشرون عامًا ونيف .. هو من الأهالى هنا ، كما هو واضح من الاسم وبالتحديد من نسبة الـ ٢٢ ٪ المسلمين التى ذكرتها لك من قبل .. يوشك المسلمون أن يكونوا مقصورين على شمال البلاد ، أما المسيحيون فيتمركزون جنوبًا ..

الفتى يعانى أعراضًا لا يمكن أن تتجاهلها باعتبارها التهاب زائدة دودية .. طبعًا هناك السؤال الشهير الذى وقع فيه كل طبيب مبتدئ : هل هذا التهاب زائدة أم مغص كلوى أيمن يتركز فى الحالب ؟ لكنى لم أعد مبتدئًا ، ويمكننى ــ بلا خطأ كبير ــ أن أعلن أن هذا التهاب زائدة .. وأنا أطلب الفحوص اللازمة وأخطر الجراحين . إن عد كرات الدم البيضاء ما زال من خير الأساليب المتبعة للتأكد من التشخيص ، برغم أن الطب الحديث يزيد الأمور تعقيدًا كل دقيقة كالعادة ..

الفتى سيموت بعد يومين .. لا أحد يعرف هذا سوى خالقه .. واليومان الآن نقصا بضع ساعات ، بينما فريق الجراحة المكون من الطبيب الإنجليزى الشاب (مايكل

لندون) ومساعده الكاميرونى (بول بييا) ، وطبيبة التخدير الألمانية - أو لعلها نمساوية - (هانا) ، يعملون فى سرعة ودقة على استئصال الزائدة الحمقاء المزعجة .

لا تتوقع أسماء كبيرة هنا ولا مهارات جراحية غير عادية ، لأن جراحة الزائدة ستظل عملاً روتينيًا يؤديه أى جراح .. هم فقط يتنافسون فى قصر الوقت والجرح الذى يستخرجون من خلاله الزائدة ..

كل شيء تمام .. تشخيصي دقيق .. الزائدة ملتهبة كالجحيم منذرة بالويل .. حالة المريض ممتازة .. مهارة الجراح لا شك فيها وكذلك طبيبة التخدير ..

كل هذا صحيح ، لكن الفتى سيموت بعد أقل من يومين .. ها هو ذا الموت يدخل العنابر ويستعد .. إنه ينزع عباءته السوداء المبتلة بالدماء والدموع .. يخلع قفازيه اللزجين .. يضع كل هذا على مشجب فى ركن المكان .. يبحث عن مقعد مريح ، ثم يجلس وهو ينظر إلى ساعته فى ملل .. ما زالت أمام الفتى بضع ساعات يقضيها فى الإفاقة .. فى تبادل الدعابات مع الممرضات .. فى تلقى التهانى بالسلامة .. بعد هذا سينهض الموت ليقف عند رأس الفراش وينتهى كل شيء ..

ولم يكن أحد يرى هذا .. لم يكن أحد يستطيع أن يرى الموت جالسًا فى مقعده يراقب فى سأم سخافاتنا وثرثرتنا التى لا تنتهى ..

بعد ست ساعات زاره الجراح فقط ليطمئن ، وكان الفتى يجيد الإنجليزية ، وقد سر الجراح لهذا لأنه سئم ـ مثل أكثرنا ـ كل هذه الأفعال الفرنسية المعقدة ، وتقاليد ضم الشفاه شديدة التعقيد .. جلس يثرثر مع الفتى فبدا له سريع الخاطر ذكيًا للغاية .. وانصرف بعد ربع ساعة شاعرًا بأنه أنجز الكثير إن كانت جراحة الزائدة الدودية تمثل الكثير ..

★ ★ ★

انتبهوا .. لقد بدأ العد التنازلى ..

هذا الفتى سيموت بعد قليل .. لا مفر أمامه ..

عند مساء اليوم الثانى بدأ يتشنج .. بدأ جسده ينتصب كقوس فى الفراش ، وراح الزبد يخرج من بين شفتيه ، وكان الطبيب المقيم في قسم الجراحة حديث الخبرة ، فلم يخطر له إلا أن هذه حالة نقص كالسيوم ـ لسبب يعلمه الله وحده ـ أهو كزاز من جرح متلوث .. وهكذا قام بما يستطيع عمله : حقن المريض بالكالسيوم ومضاد للتشنجات .. ثم ثبت قناع الأوكسجين وانتظر ..

لكن الأمور ازدادت سوءًا ، وبدا أن التشنجات لاتزول ، وهكذا أرسل يستدعى مختص الأمراض العصبية ، وكانت لهذا الأخير نظرة مختلفة بالتأكيد .. لقد لاحظ تباطؤ نبض المريض ، وارتفاع ضغط دمه ، كما صوب كشافه الرفيع إلى الحدقتين وأبدى رأيه :

ـ « هذه أوديما دماغية .. »

والأديما الدماغية هى تجمع السوائل فى أنسجة المخ .. وأسبابها عديدة لايمكن استيعابها بهذه السرعة ، لكن حلها واحد مهما كان السبب .. وسرعان ما بدأ حقن المانيتول الوريدى ، وإعطاء حقن الديكساميثازون ..

لكن الأمور كانت تسوء بسرعة غير مسبوقة ، والموت قد ارتدى قفازيه وعباءته ووقف عند رأس الفراش الآن ..

وجاء (آثر شيلبى) يركض .. فألقى نظرة على المشهد ولاحظ نوعية التشنجات ، ولاحظ أن المريض صار فى غيبوبة تقريبًا .. رفع خصلة الشعر الرمادى التى غطت إحدى عينيه وقال :

ـ « هذا ليس مرض الكزاز بالتأكيد .. هل هو التهاب المخ الحاد ؟ »



والموت قد ارتدى قفازيه وعباءته ، ووقف عند رأس الفراش الآن ..

لا إجابة .. لأنه لو كانت هناك إجابة لذكرها (شيلبى) نفسه ..

اقترح أحمق أن يأخذوا عينة من السائل النخاعى الشوكى ، لكن (شيلبى) رفع كفه فى عصبية وقال :

ـ « ليس فى حالة أوديما الدماغ .. إن هذا سيقتله دون مقدمات .. »

بارع هو (شيلبى)..حويط هو مختص الأمراض العصبية.. حذر هو الطبيب المقيم .. لكن الموت أكثر براعة وحيطة وحذرًا .. وقد قام بحركته الأخيرة فى هدوء ، ثم غادر المكان وهو يضم طرفى عباءته على صدره .. هناك طفل فى الجناح المجاور ، عليه أن يقف عند رأس فراشه الآن .. لا وقت يضيع .. إن البيزنس هو البيزنس ..

ووقف الأطباء يتبادلون النظرات فى حيرة ، ثم قال (شيلبى) :

ـ « لقد فقدنا هذا .. عسى أن يجد التشريح أجوبة ما .. »

* * *

٢ ـ كدت أنطق !

انتهى اليوم الخامس المتبقى على وفاة الطبيبة البلجيكية (إيلودى مولان)..

★ ★ ★

من حقك ـ أطال الله عمرك ـ أن تموت فى بساطة فى أى مكان فى العالم ، ماعدا فى وحدة (سافارى) . لابد من تفسير مرض .. ولابد أن يتعلم الطب جديدًا من وفاتك هذه .. كما لابد أن يُحاسب المخطئ لو كان هناك ولحد .. هكذا ـ كما يحدث دائمًا ـ حملوا الجثة إلى المشرحة حيث (جيديون) الطبيب الذى يعرف ويفعل كل شىء بعد فوات الأوان حسب تصنيف الأطباء القديم ..

لم أتابع أنا تفاصيل الموضوع ، برغم ولعى الخاص بالتدخل فيما لا يعنينى ، لأننى ذقت الأمرين من هذا الولع فى الفترة الأخيرة أولاً ، ولأننى لست مهتمًا بمعرفة سبب وفاة كل مريض هنا .. سمعت الخبر عرضًا من إحدى الممرضات ، فقلت لنفسى : هذه حالة أخرى لم تكن كما حسبنا .. (علاء) يا صديقى .. أنت لست

بالبراعة التى تحسب لحيقا أنك تملكها ، وهم أيضا ليسوا بارعين .. لقد أخطأ الجميع لكن هذا لا يعزينى فى شىء ..

كنت فى هذه الآونة قد أزمعت أن أخوض حربى الخاصة فى موضوع حان وقت البت فيه ..

كنت جالسا فى كافتيريا (سافارى) أطالع إحدى الصحف الكاميرونية المطبوعة بالفرنسية ، وكان هذا حين مرت (برنانت) .. كانت تحمل الصينية المعتادة وقد بدا من كميات الطعام أنها تشعر بشهية طيبة . هزت رأسها ورسمت تعبير (التشنيكة) العتيد على وجهها ، ثم جنبت مقعدًا وجلست .. مدت رأسها الصغير ترى ما هذا الذى أقرؤه ، ثم قالت باسمة :

ـ « آه ! هذا الهراء عن الطبق قرب (أنجاوندير ى) ؟ »

وصفرت بفمها النغمات الخمس المميزة للطبق الطائر فى فيلم (سبييلبرج) الشهير (لقاءات لصيقة من النوع الثالث) ، فقلت لها بغباء :

ـ « لا أعرف أى شىء عن الموضوع .. »

هزت رأسها فى مكر وقالت :

- «لقد عرفته بالكامل الآن ! طبق طائر (أنجلو تيرى) .. لقاءات لصيقة من النوع الثالث .. ماذا تريد أكثر من هذا ؟ »

نظرت إلى الجريدة فى فضول ، وقلت دون أن أجد الفرصة الكافية للتركيز :

- « متى ؟ »

- « منذ أسبوع .. أين كنت أنت ؟ فى (منغوليا) على ما أظن ؟ »

- « وهل خرج من الطبق رجال خضر لهم أجهزة استشعار على الرءوس ؟ »

- « تقريبًا .. الفارق البسيط هو أنهم كانوا حمر اللون ، وكانوا طوال القامة ، وقد رشوا مادة لزجة ما على المشاهدين .. ثم هوب ! ركبوا طبقهم عائدين إلى الوطن الحبيب .. »

- « ومن كان المشاهدون ؟ »

- « من تظن ؟ مجموعة من الأهالى الوطنيين الذين امتلأت عقولهم بأساطير السحر والأرواح ، وكانوا هم

الشهود على ما حدث .. لا تتوقع أن تجد من بينهم خبير اتصالات كونية أو عالم فلك .. »

فكرت قليلاً فى الأمر ثم قلت لها :

ـ « هل تريدين ؟ إننى أثق بشهادة هؤلاء القوم .. أثق بها أكثر من شهادة أوروبى أو أمريكى .. »

ـ « لماذا ؟ هل هو التعصب ضد الرجل الأبيض ؟ »

ـ « لا .. بل لأنهم أرض بكر لم تتسمم أفكارها بكل أفلام الخيال العلمى و (ملفات إكس) وما إلى ذلك .. إنهم لايملكون قناعات مسبقة ،ولايملكون خلفيات محددة سلفاً .. هؤلاء القوم لا يعرفون بالضبط ما عليهم أن يتوقعوه ، وحين يقول أحدهم إنه رأى طبقًا طائرًا يخرج منه رجال حمر ، فإنه يقول فى الغالب ما رآه بالفعل .. بينما يمكننى أن أرتاب مليون مرة فى كلام مشابه يقوله رجل قرأ قصص الخيال العلمى وشاهد أفلام الحرف (ب) .. »

فكرت فى كلامى قليلاً ، وأبطأت من حركة المضغ ثم قالت :

ـ « ربما كان كلامك على شىء من المنطق .. إن من لم ير سيارة لا يمكن أن يتخيل حادث طريق .. ولو وصفه

فهو غالبًا صادق .. ولكن دعـك من هذا ولنتحدث عن أمور أكثر جدية .. »

وللحظات تلاقت عينانـا وكل منـا يبحث عن الشـئ الجديد الذى يقال .. طالت الفترة حتى أشعرتنا بالارتباك ، لكننى أدركت أن روحينا الآن علـى نفس الموجـة ، وأن ظاهرة الرنين التى درستها فى الفيزياء منذ زمن سـحيق تعلن الآن عن نفسها .. رنَانات (هلمهولتز) .. أذكر هذا الاسم .. ماذا كان معناه .. ؟ الآن هى ـ (برنادت) لارنَانـات (هلمهولتز) ـ تنعم النظر إلـى أعمق أعماق روحـى ، وترى بوضـوح الإجابة عن كل الأسئلة ، حتى تلك التـى لم تطرح بعد ..

كنت الآن ضعيفًا متهالكًا .. كأننى مريض قلب معدوم الحيلـة لا يملـك حتـى القدرة علـى رفـع يده متوسـلاً .. العرق البارد يغمر جبينى ، وأنفاسى صارت معدودة لها ثمن وعليها ضريبـة وجمـارك .. كنت الآن طفـلا لا يملـك إلا النظر متوسلاً إلى ماما التى تعرف كل شئ ..

الآن يحمر وجه (برنـادت) .. تسطيل أهدابها لتغطى المائدة .. تقول لى فى وهن :

ـ « لا تفعل يا (علاء) .. أرجوك .. »

ألهث أنا وأستجمع بعض الأنفاس المتبقية فى الفضاء الميت برئتى ، وأهمس :

ـ « أفعل ماذا ؟ »

ـ « لا تقل ما أعتقد أنك تنوى قوله .. هذا سيعقد الأمور صدقنى .. »

لا داعى للمراءاة .. إنها فعلاً ترى كل تضاريس روحى ، وترى ومضات الأفكار الكهربية ، وهى تعتبر هذه الخلية العصبية أو تلك فى قشرة مخى ..

ـ « ولـ .. ولماذا لا أقوله الآن ؟ »

ـ « لأنك لن تستطيع أن تتراجع عن هذا أبدًا ولن تملك الاعتذار عنه .. وبعدها لن تعود الحياة كما كانت .. إن لحظات من الصمت هى ما نحتاج إليه الآن .. »

كانت أذنى اليمنى تتحرك الآن حركة عصبية مستمرة لا أملك السيطرة عليها ، وقبضتى على الجريدة قد أحالتها إلى منديل ورقى مبتل .. لكنى فعلت كما طلبت (برنادت) ورحت أتنفس بصعوبة من أنفى كما يفعل مدمنو الكوكايين .. و ...

وهنا دوى صوت الاستدعاء من مكبر الصوت الـذى ينكرك بموقف (الدلنجات) ..

الدكتـورة (برنـادت جـونز) مطلوبـة فـى قسـم الأطفال حالاً .. الدكتورة (برنادت جونز) مطلـ ...

ابتسمت لى مشجعة ، وجرعـت مـا بكوبهـا مـن ميـاه غازية على وجه السرعة ، ثم جففت فاها بمنديل ورقـى وهرعت تلبى النداء ..

أين يا ترى تلك الأحلام التى أفعمت صدرى لثوان ؟

★ ★ ★

ـ « كلها قد ماتت »

ـ « ولماذا يا سيدى ؟ »

ـ « وكيف لى أن أعرف ؟ إن المعجزة الحقيقية هى أن يظل هذا الحيوان حيًا بجهاز مناعى هش كهذا .. »

كان القيصر ـ كمـا يطلقـون عليـه سرًا ـ أو أسـتاذ المناعـة الألمـانى العظيـم (هـانز شـيفرن) يقـف وسـط أقفاص خنازير (غينيا) واضعًا قبضتيـه فـى خصـره ، يتـأمل فــى حسـرة وضيـق عشـرات الجثـث الصغـيرة المكومة فى أقفاصها ...

بالطبع كانت النظرة فى عينيه تقول : « الخير على قدوم الواردين » باعتبار هذا أول يوم لى للعمل فى وحدته .. ولحسن الحظ أن هذه الوفاة الجماعية تمت قبل أن أجتاز المعمل ، وإلا لاتهمنى بدس السم لها ، أو أننى حسود أو ما إلى ذلك .. يعرف القراء الذين لهم صلة بالعلوم أن خنازير غينيا ليست خنازير ، ولكنها قوارض تنتمى إلى الجنس المسمى (كافيا Cavia,) ، وهى بالطبع كائنات وديعة بائسة عانت الكثير من كون الإنسان وجدها البديل الرخيص غير الخطر للقردة . وقد هلكت أمم عديدة من هذه الخنازير بداء الجمرة الخبيثة ، كما أن أعدادًا مهولة هلكت منها فى أثناء تجارب (باستير) على بكتريا الاضمحلال أو الدرن .. المشكلة هى أن جهازها المناعى ضعيف رقيق ، وأن الإصابات تبدو أوضح إذا ما قمت بتشريحها ..

ارتدى الألمانى قفازًا واقيًا والتقط أحد الكائنات الفرائية الميتة من قفصه ، وقال لى :

ـ « ستكون أول عملية تقوم بها هى تشريح هذا المخلوق التعس .. أريد أن تحدد لى سبب الوفاة بدقة ، ويعنى هذا أن تقوم بتشريح ست جثث عشوائية .. »

قلت له شاعرًا بتوتر المسئولية :

ـ « وماذا عن المزارع ؟ ماذا عن تحاليل السموم ؟ »

ـ « ستجد كل ما يلزمك هنا من أنابيب اختبار وأطباق (بترى) .. إن عينات الدم تؤخذ من القلب مباشرة كما تعلم .. لا تنس أن تضع كمامة وتتأكد من التخلص من بقايا التشريح فى الفرن .. »

وهكذا وجدت نفسى أجلس أمام منضدة صغيرة ، وقد ثبتت الجثة الصغيرة المشعرة بالدبابيس إلى طبقة من الشمع ، وبالمبضع رحت أشق الأنسجة عن جدران البطن .. ليس هذا عسيرًا .. إننى بطبعى جراح أعشق الأفعال ، لكنى أخشى أن يفوتنى شىء مهم فلا ألاحظه ..

حقًا لم يكن هناك ما يريب .. كل شىء بالحجم الطبيعى وفى مكانه الصحيح .. قمت بتصنيف بعض عينات أرسلتها إلى المعمل .. عينات بكتريولوجية ، وعينات للبحث عن الفيروسات ، كما طلبت بعض فحوص الدم .. وكررت هذه المهمة ست مرات كما طلب الرجل ..

عدت إليه حيث كان عاكفًا مع بعض معاونيه على

فحص بعض الشرائح تحت مجهر متعدد العدسات .. قلت له : إننى فرغت من التشريح وإننى ...

- « لا تقل شيئًا .. »

قال لى دون أن يرفع عينه عن العدسة :

- « أريد تقريرًا مكتوبًا وممهورًا بإمضائك .. إننا هنا لا نملك قاعدة عمل إلا الدقة التامة .. لو أردت أن تكون عالم مناعة فعليك بالدقة التامة فى كل شىء .. »

هززت رأسى موافقًا ..

ومن قال له إننى أرغب فى أن أكون عالم مناعة ؟

* * *



٣ ـ عن اللقاءات اللصيقة وأنيميا شلل النخاع

انتهى اليوم الثالث المتبقى على وفاة الطبيبة البلجيكية (إيلودى مولان) ..

* * *

لم يكن (شيفرن) سمجًا قاسيًا كما يبدو من طريقة كلامه ، لكن حادث فقد خنازير غينيا جعله ضيق الصدر نافد الصبر . وبشكل ما كنت أفهمه ..

كنت أعرف أن أيامًا سوداء تنتظرنى هنا فى قسم المناعة ، لأننى بالتأكيد آخر شخص من خلق الله يمكن أن يهتم بتلك المصطلحات الغامضة ، وأنواع المستضدات والخلايا التى تحمل مستقبلات CD 4 أو CD 8 والإنترلوكين .. إلخ .. كل هذا العالم المعقد كان يثير نفور الأطباء التقليديين وسخريتهم ، حتى ظهر لنا مرض مناعى شنيع اسمه الإيدز .. عندها هرع الجميع إلى كهنة علم المناعة فى محرابهم ، يجثون على ركبهم ويسألونهم أن يشرحوا لهم أسرار هذا الكهنوت الغامض ..

الحق إن حقبتى الثمانينات والتسعينات جعلتا علم المناعة أهم علوم الطب ..

* * *

إلى أن نعرف نتائج التشريح ، رحت أقضى يومى بانتظام ما بين العمل المثير للاكتئاب مع (شيفرن) وبين الاكتئاب ذاته وحدى .. الاكتئاب الخام الذى يمكن أن تذيب منه قطعًا فى مياه الشرب ، لتجعل أمة من البشر تقرر الانتحار ..

فى هذا الوقت لم يكن لدى أفراد (سافارى) حديث إلا عن خرافة الطبق الطائر الذى شوهد قرب الوحدة .. حقًا لم يره أحد من الغربيين ، لكن هذا ـ كما قلت آنفًا ـ يجعل تصديق القصة أسهل بالنسبة لى .. وكان من الواضح أن القصة لن تلبث أن تندثر كحجر ، ألقى فى الماء ليحدث دوائر ودوائر لا تلبث أن تنتهى .. وبيني وبينك كان الحجر الذى ألقى فى لجة مشاعرى كفيلا بجعلى لا أبالى كثيرًا بأية أحجار أخرى ..

إن اللقاءات اللصيقة من النوع الأول ـ كما يعرفها د. (ألن هاينك) خبير الأطباق الطائرة الأمريكى ـ هى

اللقاءات التى يرى فيها الإنسان جسمًا طائرًا غير معروف Unidentified Flying Object أو كما يدللـه الأمريكيون UFO .. ولقد شاعت لفظة UFO وانتشرت لدى العامة إلى حد أنْ معناها صار (طبق طائر) دون تحفظ ..

اللقاءات اللصيقة من النوع الثانى هى تلك اللقاءات التى يترك فيها الطبق الطائر أثرًا ماديًا لا شك فيه .. إن العشب المحترق أو الغصون المهشمة تكون كافية غالبًا للبرهنة على أن هذا النوع من اللقاءات حدث ..

اللقاءات اللصيقة من النوع الثالث هى اللقاءات موضوع الجدل ، والتى يخرج فيها من الطبق الطائر رواد فضاء حقيقيون ـ بقرون استشعار أو بدون ـ ليتكلموا مع أو يختطفوا البشر .. وقد كان فيلم (سبيلبرج) الشهير الذى يحمل نفس الاسم هو بداية السيل فى عودة حمى الأطباق الطائرة ، وهى حمى انتشرت فى الخمسينات وألهبتها القصص المصورة ، والأفلام العلمية الرخيصة التى يسمونها أفلام حرف (ب) ..

بعد هذا لعب مسلسل (ملفات إكس) وأفلام من طراز

(يوم الاستقلال) دورًا عظيمًا فى جعل هـذه التخرصـات أمرًا لا شك فيه ، وهو نمـوذج جيد للطبيعة حين تقلد الفن كما يقول (أوسكار وايلد) . من الآن فصاعدًا لـن يسمح أحد للفضاء بـأن يخلـو مـن كائنـات عاقلـة ، ولـن يسمح أحد لهذه الكائنات بأن تتنقل إلا بأطبـاق طـائرة أو تقاتل إلا بالليزر . مـن الآن يمكن أن يقتلك أى أمريكـى لو شككت للحظة فى أن الحكومـة الأمريكيـة تخفـى طبقًـا طائرًا وجثث كائنــات فضـاء ، فـى تلـك البقعـة العسكرية السرية المعروفة بالمنطقة ٥١ ..

كـان الأهـالى إذن يتحدثـون عن لقـاءات لصيقـة مـن النوع الثالث ، ولم يكن أحد مـن الغربيين مستعدًا لأخذ كلامهم بجدية ، خاصة أن الطبق الطائر لم يترك أية آثار ملموسة .. أضف لهذا أن نطاقات ظهور الأطباق الطائرة حول الأرض معروفة ، ولا يمر أحدها بالكاميرون كما لا يمر أحدها بمصر ..

وهكذا تجاهلنا القصة وقتها كما نتجاهل أشياء أخـرى كثيرة ..

* * *

انتهى اليوم الثانى المتبقى على وفاة الطبيبة البلجيكية (إيلودى مولان) ..

فى هذا الوقت لم تكن تعانى إلا أعراض التهاب بالحلق مألوفة وعادية جدًا .. وقد أعطت لنفسها بنفسها بعض الأمبسللين ، لكن الأمور لم تغد أفضل .. ارتفعت درجة حرارتها ، وصار تنفسها عسيرًا ، وفى النهاية تم إدخالها كمريضة فى قسم الأمراض الصدرية ، و قد اعتبرت مصابة بأحد الأنواع غير النمطية من الالتهاب الرئوى ..

بقى لها يوم واحد الآن فى (سافارى) لكن أحدًا لم يعرف هذا بالطبع ..

كانت نتيجة فحص الدم محيرة .. إن الخلايا البيضاء منخفضة إلى حد لا يصدق .. وهكذا كان تشخيص الحالة الأساسى هو الالتهاب الرئوى ، نجم عن نقص مناعى غير مفهوم .. وقد قاموا بعمل الفحوص اللازمة ، وأعطوها مظلة من المضادات الحيوية تمنع تسلل عدوى أخرى ، وكانوا فى سبيلهم إلى حقنها بالعناصر التى يفتقر لها دمها أو بعض العوامل المنشطة لمستعمرات

الخلايا البيضاء ، لكنهم نسوا شيئًا مهمًا : لقد انتهى اليوم الثانى فيما تبقى لها من عمر ، ولم يعد إنقاذها ممكنًا ..

لم تتعذب كثيرًا ، لكنها غابت فى صمت فى ذلك العالم الذى لم يعد منه أحد ولم يجب عن أسئلة ..

بالطبع توجد أسباب كثيرة لهذه الحالة .. إن الخلايا البيضاء فى جسمنا هى أفراد جيش المناعة الذى يقاوم العدوى بكل صورها .. صحيح أن الأمور ازدادت تعقيدًا وتحذلقًا ، لكن تظل هذه هى الحقيقة البسيطة المجردة منذ اكتشفها (متشنكوف) عام ١٨٨٥ حتى اليوم .. حين تتدهور الخلايا البيضاء أو ينقص عددها ، يصاب الجسم بكل شىء ممكن ، وتغدو عطسة الرضيع بمثابة قذيفة مدفع بالنسبة للمريض .. هذه إذن قصة بسيطة جدًا تتلخص فى أن خلايا الطبيبة البيضاء نقصت بشكل غير مفهوم ، ولكن لماذا نقصت ؟ تلك هى المسألة ..

وفى اليوم التالى لهذا التتابع المحزن ، وبينما (سافارى) كلها فى حالة من الاكتئاب العام ، جاءتنى تقارير موت خنازير (غينيا) .. ماذا تتوقعون كان فيها ؟

بالضبط .. « كانت نتيجة فحص الدم محيرة .. إن الخلايا البيضاء منخفضة إلى حد لا يصدق » . وقد اقترح المعمل أن يكون سبب ما حدث هو أنيميا شلل النخاع الحادة .. أما بالنسبة لوجود فيروسات أو بكتريا أو ما يسميه المترجمون (أخماج) لسبب لا أعرفه ، فقد كانت النتيجة سلبية حتى هذه اللحظة .. وهى لحظة مبكرة على كل حال ..

حملت الأوراق ملهوفًا إلى القيصر (شيفرن) ، فنظر فيها ثم نظر لى .. وأعاد القراءة مرارًا ..

أخيرًا قال لى ، وقد بدأت يده تهتز انفعالاً :

– « آى آى .. هذا يبدو مهمًا .. مهمًا جدًا .. »

ثم طوى التقارير ودسها فى جيبه ، وقال :

– « (بارتلييه) يجب أن يرى هذا وأن يكون له رأى ما .. »

قلت فى عدم فهم :

– « يمكننى أنا أن أقابله وأن أنقل له الصورة .. إن علاقتنا .. »



«كانت نتيجة فحص الدم محيِّرة .. إن الخلايا البيضاء منخفضة إلى حدٍّ لا يصدق»

قاطعنى باسمًا للمرة الأولى منذ أيام :

ـ « أعرف .. لكـن وجهـى العابس سيجعلـه يهتم أسرع .. ويكون اهتمامه أكثر عمقًا وفعالية .. »

ومالم يقله هو أن ضريبة الشباب التى يجب دفعها ، هى كون لا أحد يصدقهم بسـهولة .. إن تهمـة الاستهتار أو الخفة أو الخرق تحوم حول رءوسهم دومًا ، وأنا ـ طيلة حياتى ـ أعطى انطباعًا بأننى أصغر سنًّا مـن الحقيقـة .. حتى بالشعيرات البيضاء التى بدأت تغزو مفرقى ولحيتى ، أبدو فى العشرين من العمر ..

وافقت على فكرته .. وقررت أن أنتظر ..

ليكن حامل هذه الأخبار المزعجة إلى المديـر البـائس شخصًا آخر سواى ، فقط على سبيل كسر العادة المملة ..

* * *

وفى السابعة مساءً استدعانى (بارتلييه) إلى مكتبه ، ليلومنى .. لماذا ؟ لا أدرى بالضبط .. لكنها صارت هوايـة .. وبشكل ما كنت أعرف أن هذا سيحدث ..

* * *

٤ ـ نحن نفكر فى الشىء ذاته ..

توقعت أن يكونوا واجمين كأنهم أركان حرب جيش تمت إبادته .. ولم يخب ظنى كثيرًا .. كان (بارتلييه) جالسًا إلى مكتبه وقد أراح ذقنه المكتنزة إلى قبضتيه ، وكان (باركر) جالسًا وقد وضع ساقًا على ساق يطالع التقارير ، وكان (شيفرن) واقفًا فى حماس ، ويداه فى جيبى سرواله كأنما كان يخوض موقعة مهمة . وبالطبع كان لابد أن تجد (آثر شيلبى) يبتسم فى ثقة كأنه كان يعرف أن هذا سيحدث .. و .. ماذا ؟ (جيديون) هنا أيضًا وهو لا يطيق (بارتلييه) ؟ غريب هذا .. واضح أنه أمر جلل إذن ..

ـ « مساء الخير يا سادة » .

قلتها وانتظرت ما سيقال من كوارث لا أعرف ما هى بالضبط ..

أشار لى (باركر) كى أجلس فى مقعد ما هنالك ، وقال دون أن ينظر لى :

- « د. (عبد العظيم) .. أنت من طلب هذه التقارير الخاصة بخنازير غينيا ؟ »

نظرت إلى (شيفرن) وقلت :

- « بناء على أوامر البروفسور (شيفرن) .. نعم .. »

- « ثمة مشكلة صغيرة هي أن التقارير تتشابه بشدة مع تقارير الطبيبة البلجيكية المتوفاة .. »

- « أعرف يا سيدى .. لكننى لم أعرف أنكم قمتم بتشريحها .. »

- « لم نفعل .. ثمة اعتبارات إنسانية وسياسية منعتنا من ذلك .. لكن لدينا تقارير ما أجرى لها من أبحاث قبل الوفاة .. »

هنا دق جرس غامض فى ذاكرتى .. تذكرت نقطة بالغة الأهمية .. قلت :

- « ومريض الزائدة الكاميرونى الذى توفى بلا تفسير واضح يا سيدى .. هل ؟ »

هنا تدخل (جيديون) قائلاً :

- «ليس نفس الشيء .. أرى أنك ربطت بين الموضعين ، وهذا يسرنى بقدر ما يثير دهشتى .. لماذا ؟ »

- « الوفاة المفاجئة بلا تفسير .. هذا هو الرابط . »

قال (جيديون) وهو يراجع بعض الأوراق فى يده :

- « المريض الكاميرونى (أحمد ميتابوا) توفى من جراء تورم عام فى أنسجة المخ .. لاتوجد مشاكل فى دمه ، ولا شىء يشبه ما حدث للطبيبة وخنازير غينيا » .

سألته فى حذر :

- « هل هو وباء جديد يا سيدى ؟ أعنى مثل الموضوع (العين التى تنزف دمًا) أو الحميات النزفية ؟ »

هنا تدخل (بارتلييه) أستاذ الفيروسات القديم وقال :

- « حتى هذه اللحظة لم يظهر لنا شىء .. لكننا نواصل البحث .. ثمة احتمال لا بأس به أن هذا فيروس جديد تسرب إلى (سافارى) .. لكن من المؤكد أن مخلفات الجثث لم تقتل خنازير غينيا السليمة .. »

- « وهذا لا يطابق ما هو معلوم من علم الأوبئة .. »

هز كفه بمعنى أنه ليس واثقًا من شىء ، ثم قال :

ـ لم تعد القواعد واضحة كما كانت فى الماضى .. إن لدينا مجموعة جديدة غريبة الأطوار من الفيروسات ، ولدينا البريونات التى هى مجرد بروتين بلا حمض نووى ، وبرغم هذا تحيا وتصيب بالمرض وتقتل .. »

قال (شيلبى) ظاهر الاستمتاع بحيرتنا :

ـ « لو أن (باستير) عاد للحياة اليوم ، لأصابه الجنون .. لم تعد هناك قاعدة واحدة ثابتة محترمة .. إن الغد يحمل لنا كل شىء .. »

هنا عاد (جيديون) يتكلم بصوته المميز الأخنف قليلاً :

ـ « لكننا يجب أن نفكر فى كل شىء .. لقد طلبت تحليل البقايا من ناحية الإشعاع .. »

هذا منطقى .. إن الإشعاعات الذرية تدمر نخاع العظام حتماً ، وتسبب أنيميا شلل النخاع .. ولكن ما مصدرها ؟

قال (بارتلبيه) فى شىء من الحرج كأنما ارتكب خطيئة أو قال شيئاً بذيئاً :

ـ «كنت أخشى أن أبدو سخيفًا .. لكنى وجدت هؤلاء السادة ـ وكل منهم حجة فى علمه ـ يفكرون فى الشىء ذاته .. لقد بدأ كل شىء مع ظهور هذا الطبق الطائر الغريب قرب (أنجاواتديرى) .. »

تماسكت حتى لا أنفجر ضحكًا .. حتى أنتم تفكرون بالطريقة ذاتها ؟

قال (شيلبى) فى برود :

ـ « على رجل العلم ألا يحتفظ بقناعات سابقة .. كلنا شعرنا بأشياء غير متوقعة بعد ظهور الطبق .. أو كما يزعم الأهالى .. وإننى لأسائل نفسى عما إذا كانت هذه حالة من حالات (لقاءات النوع الثانى) حين يترك الطبق الطائر آثارًا فيزيائية ملموسة .. فى هذه الحالة يكون الأثر نوعًا من الإشعاعات .. ربما مؤينة أو غير مؤينة .. وهى قادرة على تدمير نخاع العظام أو إضعافه .. »

هنا أضاف (بارتلييه) مؤمنًا :

ـ « ولربما هو فيروس فضائى مجهول لنا .. أنتم تذكرون فرضية (ميريك) الشهيرة حول اللقاء الأول بين البشر وكائنات الفضاء .. لقد فرض (ميريك) أن

قوانين الاحتمالات تجعل فرصة اللقاء الأول بين الإنسان والباكتريا الفضائية ، أعلى منها بكثير بالنسبة لكائنات معقدة عديدة الخلايا .. وبعبارة أخرى : سيكون أول ضيف من الفضاء يجيء إلى الأرض - فى الغالب - نوعًا غامضًا معقدًا من البكتريا .. »

تدخل (جيديون) بلهجة من ينصحهم بألا يتركوا لخيالهم العنان ، وقال :

- « لا يجب أن نضع نظرية الطبق هذه كحقيقة مسلمة ، لكننى - كما قلت لكم - لا أدرى ما يمنع من أن نرسل إلى هناك من يبحث عن الحقيقة .. »

آهه ! فهمت ! كنت على وشك التساؤل عن دورى فى هذا كله .. ستكون هناك حملة مكونة من ثلاثة أفراد تتجه فى سيارة ، عبر تلك الطرق الوعرة إلى إحدى القرى النائية .. وهناك سنجلس لنلتهم الكاسافا مع زعيم القرية الذى يضع فيها روث الماشية على رأسه كناية عن علو المكانة .. هذا السيناريو ليس غريبًا على أبدًا ..

وقال لى (بارتلييه) بلهجة من فرغ من مناقشة الأمر :

ـ « متى تكون مستعدًا ؟ »

ـ « أى وقت يا سيدى .. هل من حقى الرفض ؟ »

ـ « لا .. هذا أمر تكليف .. سيكون معك (بودرجا) طبعا ، و ... ربما اخترت اسمًا ثانيًا لم استقر عليه بعد .. »

قلت له مذكرًا وأنا أستعد للنهوض :

ـ « يا سيدى .. هل هناك خبير فى طب الإشعاع فى (سافارى) أو على الأقل من يعرف كيف يستعمل عداد (جايجر) ؟ »

تبادل النظر مع الآخرين .. هذه وجهة نظر مهمة .. إن طب الإشعاع فرع مهم جدًا من العلوم الطبية ، لكنه بالتأكيد ليس الفرع الذى يمكن أن يوجد هنا فى (الكاميرون) .. إن أطباء الإشعاع يعملون فى المفاعلات ومحطات التجارب الذرية ، وليسوا موجودين تحت الصخور التى ترفعها ..

قال (باركر) فى نفاد صبر كعادته :

ـ « لدينا فى قسم الأشعة العلاجية من يمكن أن يكون أن يكون مفيدًا فى هذا .. »

وهكذا تم اتخاذ قرار الحملة وبقى أن تقوم فعلاً ..

* * *

عند المساء وصلنا إلى الموضع .. لم يكن بعيدًا عن المدينة ، وكانت هناك مجموعة من أكواخ عمال التعدين .. إن التيتانيوم شحيح فى الكاميرون ، لكنه مازال موردًا اقتصاديًا مهمًا ..

وقف العمال يتأملون هليكوبتر (سافارى) بشعارها الغريب غير المألوف ، ومروحتها تدور فتبعثر الغبار فى كل صوب ، وتطير الغسيل المعلق ليجف فى فناء كل كوخ .. لابد أنهم لم يكونوا أكثر دهشة حين رأوا الطبق يهبط من السماء .. كان كبير العمال هنا يدعى (ماتاتجا) ، وهو رجل شديد السواد فى الخمسين من عمره ، أصلع الرأس تمامًا ، ويجيد الفرنسية ، وقد دنا منا ليفهم من نحن بالضبط ، وهو لا يلبس فوق سرواله إلا فانلة داخلية متسخة يطل منها كرش عظيم لا بأس به ..

كان الرجال مندهشين لقدومنا ، وأدركت أنهم لم يحظوا بزيارة رسمية منذ انتشر خبر هبوط الطبق الطائر .. إن الجهات الرسمية لم تصدق الخبر على

الإطلاق ، وربما لم يأت سوى بعض صحفيين باحثين عن خبر مثير فى صحفهم ..

قال (ماتاتجا) وهو يشير إلى مساحة عارية من الأشجار على بعد مائتى متر :

ـ « لقد هبط الشىء هناك .. كان يشبه الطبق تمامًا ، وكانت أضواء حمراء وزرقاء تنبعث منه .. »

سألته وأنا متأكد من الإجابة :

ـ « هل رأيت هذا بعينيك ؟ »

أشار إلى بعض الرجال وقال :

ـ « كنت فى المدينة وقتها ، لكن هؤلاء رأوه .. قلت لى ما اسم هذا المستشفى الذى أرسلكم ؟ »

ـ « (سافارى) .. وحدة (سافارى) .. »

راح يلوك بعض الأعشاب ويبصقها على الأرض ، وقال :

ـ « تبًا لتلك السماء ! إنهم يملكون منها الكثير حقًا .. هذا هو ما يتعلمونه فى مدارس (ياوندى) .. »

أقول إننى كنت متأكدًا من أنه لم يـر الحدث بعينيـه ، لأنك فى الغالب حين تحقق فى هذه الأمـور الغريبـة تكتشف أن أحدًا لم يرهـا رأى العين .. إنمـا سمع فلانًـا يقول إن فلانًـا سمع أن فلانًـا رآهـا .. والمثير هنـا أن الأول يكون متحمسًا ويصدق كل شىء إلى حد أنه يوشك أن يرى المشهد بتفاصيله .. بل إنه ينسى فيما بعد ما إذا كان رأى التفاصيل أم سمعها فقط ..

عدت أسأل :

ـ « ومـن رأى هـؤلاء الرجـال القـادمين علـى هـذا الطبق ؟ »

أشار إلى امرأة سوداء تقف على بعد مترين ـ زوجـة أحد العمال كما يبدو ـ وهى مذعورة مخبولـة هستيرية ملتاثة تمامًا كما هو واضح من اتساع عينيها ..

ـ « تكلمى يا (حاتمة) .. »

اتسعت عينـا (حاتمـة) أكثر ، وراحت تحكى بلغة لـم أتبينها قصـة عظيمة جدًا عن الرجال طوال القامة حمـر اللـون ، الذين خرجـوا مـن الطبـق الطـائر ، وراحـوا يفحصـون كل شىء حولهم ، ثم صوبوا المدافع الغريبة على النـاس ، وأطلقوا منها سيلاً مـن مادة لزجـة قذرة

على كل من أسعده الحظ بالتواجد ساعتها .. بالطبع فهمت هذا كله من رئيس العمال الذى يجيد الفرنسية وليس (بودرجا) الذى لم يكن له داع هنا ..

ـ « وما هى هذه المادة ؟! »

عادت المرأة تتكلم ، ثم هرعت إلى كوخها .. بعد ثوان عادت حاملة ما يبدو كمنديل رأس ، تغطى كله بالمادة إياها .. إنه شبيه بمنديل امتلأ بالمخاط ثم جف .. لا أكثر ولا أقل .. قطعة قماش مجعدة منشاة ..

كانت القصة بعد هذا كما يلى : لم يحدث شىء .. !

فقط عاد القوم إلى طبقهم الطائر و .. وووش ! حلقوا نحو السحاب ، أما الأهالى فهرعوا مذعورين إلى أكواخهم وراحوا يغسلون عيونهم وثيابهم من هذه المادة الكريهة .. بمزيج من التقزز والذعر يمكن فهمهما ..

ـ « هل مرض أحد لسبب غير مفهوم بعدها ؟ »

ـ « لا أحد » ـ يقول رئيس العمال » ـ « فيما عدا الذعر لم يحدث شىء غير عادى .. »

ـ « ولم يبدأ أحد فى التشنج والصراخ أو يشك لحد من التهاب حلقه ؟ »

- « قلت إن أحدًا لم يمرض .. »

أشرت إلى (مايك) فنى الإشعاع الأمريكى المرافق لنا ، وهو ليس خبيرًا لكنه على الأقل يفهم بعض الشىء عن أمن المستشفيات .. وهو وجه جديد فى (سافارى) أحبه الجميع للطفه وبساطته ، كان قد أخرج أجهزته وبدأ يراجعها ، ثم مط شفته السفلى سلبًا وقال :

- « لا أظن أن هناك إشعاعات هنا .. »

- « والعمال ؟ »

مرر الجهاز على جسد رئيس العمال المندهش ، وقال دون أن يعبأ به :

- « سلبى .. لكن من الوارد أن تكون الإصابة بالغة ولا يشعر بها الجهاز .. لابد من أن يصاب الهدف بنحو ٤٠٠٠ راد كى نجد هذا بوضوح ، ومن يصب بـ ٤٠٠٠ راد لن يقف هنا يثرثر .. »

فيما بعد عرفت أن الراد هو وحدة قياس الإشعاع ، والراد الواحد هو كمية الإشعاع التى تؤدى لانبعاث ١٠٠ إرج من الطاقة لكل جرام من المادة . إن طلبة الثانوى العباقرة يذكرون هذه التفاصيل بدقة ، أما أنا فلا أذكر منها إلا أشباحًا ..

المشكلة هى أننا نتعلم أهم الأشياء ونحن فى سن لاتسمح لنا بإدراك أهميتها . أما الآن فأنا على استعداد للتضحية بما فى جيبى مقابل العثور على نسخة من كتاب الفيزياء للصف الثالث الثانوى .. مملكتى مقابل كتاب !

قلت لرئيس العمال :

ـ « دعنا نر مكان الطبق .. »

مشى موكبنا العجيب وسط العيون المحملقة والمندهشة والساخرة والغاضبة ، حتى بلغنا فسحة الخلاء التى قيل إن الطبق هبط فيها .. كانت رقعة واسعة من الأعشاب ، لكنها لا تتميز بشىء خاص .. لاتوجد أعشاب مهشمة أو محترقة .. لا آثار من أى نوع ..

ـ «لو كان هذا طبقًا طائرًا فهو خفيف الوزن كنبلبة .. »

وجثا الفنى على ركبتيه ، وراح يمرر الجهاز على العشب .. لا شىء ..

استغرق مسح الرقعة نحو نصف ساعة ، وفى النهاية نهض الرجل ليغمغم بعبارات خفيضة توحى بخيبة الأمل ، ثم أشعل لفافة تبغ ونظر لى ، وقال :

ـ « لا شىء .. من الواضح أن شيئًا لم يهبط هنا أو أنه هبط ولم يترك أثرًا .. »

ـ « لا بأس .. »

وكانت معنا ممرضة إنجليزية ، أشرت لها وطلبت أن تبدأ الجزء الثانى من عملية المسح .. لا بد من عينات بول وبراز ودم من هؤلاء العمال .. بالطبع رحبوا بالجزء الأول والثانى من الموضوع ، ورفضوا الثالث بغلظة .. وقد فشلنا كلية فى إقناعهم بمد أذرعهم لنأخذ عينة .. إن الإفريقى ـ مثله مثل بعض فلاحينا ـ يؤمن أن كمية الدم فى جسم الإنسان لا تتجاوز أربعة سنتيمترات .. بالتالى يكفى ملء المحقن بالدم كى يسقط المريض ميّتا ، وقد خلت عروقه من الدم ..

بالإضافة لهذا كان وجودنا مريبًا أصلاً ، بلا تفسير . وماكان هؤلاء يمنحون أى شىء . ببساطة الرجال جاءوا من السماء كى يطلبوا منهم دمًا ..

وهكذا لم يعد لدينا شىء أكثر نقوم به .. فاتجهنا إلى الطائرة ، وسرعان ما راح المحرك يهدر وبدأت العاصفة من جديد .. وبدأت الأرض تنأى عنا وهى تهتز .. نحن الذين كنا نهتز .. لكن لا تنس النسبية أبدًا ..

يمكن القول إن هذه الزيارة لم تكن مفيدة على الإطلاق ..

★ ★ ★

٥ ـ ابحثوا جيدًا يا سادة ..

ـ « بل هى أداة نفى طيبة .. »

قالها (بارتلييه) وهو يطالع تقريرى .. ثم أردف :

ـ « قد عدتم لتخبرونا أنه ما من إشعاعات تخرج من هذا الطبق الطائر .. وهذا يعادل فى أهميته قولكم إن هناك إشعاعات .. »

كنت أعرف تعبير (أداة نفى طيبة) Good Negative الذى يستخدمه الأطباء كثيرًا بالطبع ، لكنه لم يرق لى هنا .. يمكننى أن أصف لك مائة موقع ليست فيها إشعاعات فى هذا العالم ، وأولها مطبخ خالتى .. لكن لا أظن هذا يفيد القضية كثيرًا ..

سألته وأنا أنهض من مقعدى :

ـ « هل وجد المعمل شيئًا ذا بال ؟ »

هز رأسه نفيًا ، وقال :

ـ « لا شىء .. لا إشعاعات .. قطعة القماش التى

جلبتها لنا لا تحوى إلا المخاط الجاف .. لو كان هؤلاء الفضائيون قد قطعوا كل هذه السنوات الضوئية ليفرغوا أنوفهم علينا ، فأنا لا أفهمهم على الإطلاق .. »

برغمى ابتسمت ، وقد راقت لى الفكرة ، ثم أشرت للباب بمعنى (هل يمكننى الانصراف ؟) فهز رأسه أن نعم .. إلا أننى تذكرت شيئًا آخر ، فسألته وأنا واقف :

- « هل مخلفات من ماتوا ملوثة بفيروس معين ؟ »

قال وهو يعقد أنامله أمام ذقنه :

- « نحن فى العادة نجرب أكثر من مرشح .. القصة هى أنهم يقومون بتمرير تيار من الهواء المضغوط على العينة ، بعد هذا يرغم هذا الهواء على اجتياز مرشح بكتريا لا يسمح بمرور الأجسام التى هى أكبر من ١٠٠ أنجستروم . لو استطاع الهواء الخارج من المرشح أن يؤذى خنزيرًا غينيًا ، فمعنى هذا أننا نتحدث عن فيروس لا بكتريا .. حاليا نحن مستمرون فى تجربة المرشحات .. المشكلة هى أن مخلفات الجثث لا تقتل خنازير غينيا ، ومعنى هذا أنه اختبار لاجدوى منه .. »

ـ « وهل البقايا مشعة ؟ »

ـ « بالسبل العادية .. لا .. لكننا ما زلنا نتقصى هذا الاحتمال .. »

ـ « هل تريدون منى مهمة أخرى ؟ »

ـ « حاليًا .. لا أظن .. »

ثم تذكر شيئًا فقال :

ـ « هل تشعر باستفادة علمية هنا ؟ كيف حال دراساتك ؟ هل حقًا يناسبك دور المسمار الذى نسد به أى ثقب ؟ »

لقد وجد من واجبه أن يبدى بعض الاهتمام بمصلحتى كى يرضى ضميره ـ أعترف أنه يقظ ـ وكى لا أشعر بأننى مجرد (مرمطون) يرسلونه للمهام الخطرة أو الشاقة أو المملة .. قلت له :

ـ « لا بأس .. لكنى كنت أتمنى أن أعمل فى قسم الجراحة .. بالذات مع الدكتور (سباتزانى) .. »

ابتسم ابتسامة صبى مبهور وقال :

ـ « (سبالتزانى) ؟ كل وحدة (سافارى) تريد العمل معه .. ولو انقدت لهم لما بقى عندى من يعمل فى أى قسم آخر .. يبدو أن الإيطالى العجوز بارع حقًا ، ويبدو أن لديه ما يجيده غير قرص الممرضات الحسناوات .. لكن يا (علاء) .. سأضع هذا فى الاعتبار بعد ترتيبه مع د. (باركر) .. »

تنهدت فى يأس .. ما دام الأمر سيعهد إلى (باركر) ـ غراب البين ـ فلا جدوى .. سيقول كلمته الشهيرة : على الفتى أن يوجد حيث نريد له أن يوجد ، وإلا فإن الكاميرون لا تفتقر إلى الطائرات العائدة إلى الوطن ..

* * *

ـ « شمر ذراعك يا دكتور ، واجلس من فضلك .. »

قالتها الممرضة الفرنسية وهى تنزع المغلف عن المحقن .. بدا لى هذا غريبًا ، فمن حق كل إنسان أن يعرف السبب الذى يسحبون دمه من أجله .. جلست وشمرت الثياب عن أعلى ذارعى ، وتركتها تلف أعلى الساعد بالتورنيكيه .. ضغطت بسبابتها ضغطة تتحقق من موضع الوريد ، وطهرت الموضع ثم أولجت الإبرة ..



جلست وشمرت الثياب عن أعلى ذراعى ، وتركتها تلف أعلى الساعد بالتورنيكية ..

آى ! وتأملت المحقن يمتلئ بالدم الأحمر القانى ، ثم إنها أفرغته فى أنبوب اختبار صغير كتبت عليه اسمى ..

فكت الرباط ثم أشارت إلى مجموعة أطباء المناعة المتناثرين فى معمل د. (شيفرن) ، وأمرتهم بالشىء ذاته ..

سأله القصير (شيفرن) نفسه وهو يتلقى الإبرة فى ذراعه :

- « آى ! وتقومون بهذا بالنسبة لكل أطباء الوحدة ؟ »

- « نعم .. بل وبعض الفنيين والمرضى كذلك .. »

- « هذا لا يبعث الطمأنينة فى النفوس .. ألا تعرفين السبب ؟ »

- « لا .. أنا أفعل ما طلب منى .. »

نهض (شيفرن) إلى جهاز الهاتف ، فطلب رقمًا لابد أنه المدير ، وراح يتكلم :

- « مرحبًا .. ما هذا الذى يحدث هنا ؟ لم تخبرنى بهذا .. »

وأنزل كم قميصه وأعاد ارتداء نصف المعطف الذى انتزعه ..

ـ « هه ؟ فقر دم عام ؟ غريب هذا .. كم حالة ؟ رباه ! ها نحن أولاء نعود إلى مأزق الإشعاع من جديد .. يجب إجراء مسح شامل لكل الأجهزة المشعة هنا .. نعم .. أعرف .. ليكن .. ليكن .. أوف فيدر هورين »

ووضع السماعة ونظر إلينا ، ورأى نظرة اللهفة على الفهم فى العيون ، فقال :

ـ « فقر دم عام .. نقص فى كافة مكونات الدم .. هذه الأعراض ظهرت حتى الآن لدى أربعة أطباء .. و (بارتلبيه) لا يريد أن يترك شيئًا للمصادفات .. »

صاح أحد الأطباء فى حماس :

ـ « لابد من تسرب إشعاعى فى مكان ما هنا .. »

ـ « لا أجد احتمالاً آخر .. إن احتمالات حدوث تسمم كيميائى واهية جدًا »

قلت أنا فى لا مبالاة كأن الأمر لا يعنينى :

ـ « أو هو مرض وبائى جديد لا يعرفه الطب .. »

قال (شيفرن) فى ضيق وهو يعود إلى عمله :

- « مرض وبائى لا ينتقل إلى خنازير غينيا ولا يحقق فرضيات (كوخ) .. هذا احتمال واه جدًا يا بنى .. »

قلت متفلسفًا :

- « لو أن (باستير) عاد للحياة اليوم ، لأصابه الجنون .. لم تعد هناك قاعدة واحدة ثابتة محترمة .. إن الغد يحمل لنا كل شىء .. »

كانت هذه عبارة (شيلبى) بنصها كما قالها فى ذلك الاجتماع .. لكن (شيفرن) لم يلحظ هذا ، وازداد عصبية وتوترًا .. وأدركت أن العبارة أثارت اهتمامه لأنه كان يفكر فى الشىء ذاته ..

القيصر يفكر فى الشىء ذاته ..

★ ★ ★

لم أعرف النتيجة بالطبع ، لأننى لست من جهات تلقى المعلومات فى (سافارى) ، لكن فيما بعد عرفت ممن يعرفون الأشياء قبل سواهم ، أن نحو ١٠ ٪ من العينات كانت موجبة .. لا أعتقد أن عينتى بالذات كانت من هذه العينات الموجبة ، لأنى لا أشكو من أى نوع من الضعف

العام .. لكن الرقم برغم هذا مخيف .. واحد من كل عشرة أطباء هنا يعانى نقصًا ـ بلا تفسير ـ فى خلايا الدم الحمراء والبيضاء ..

ومن جديد عاد الكلام عن الطبق الطائر وغزاة الفضاء ..

هذه المرة كان مصدر الكلام هو العامل الكاميرونى (جورج) ، وهو مولع على كل حال باكتشاف أشياء غريبة فى القبو .. بالطبع يعرف الجميع أنه يتسلل إلى القبو ليدخن متظاهرًا بأنه يفحص الأجهزة .. وكان ما وجده فى القبو هذه المرة غريبًا بعض الشىء ..

ـ «كانوا أربعة .. طولهم شنيع حتى إن الواحد منهم يبلغ قامتين من قامة الرجل .. لونهم أحمر كالدم ياسيدى .. وعيونهم .. عيونهم طولية تشع نورًا أخضر .. كانوا يقفون هناك وينتظرون .. وحين رأونى ، رفع أحدهم سلاحًا ما لا أعرف ما هو ، وصوبه على رأسى ، لكنى انحنيت ، ثم رحت أركض خارجًا من القبو .. »

تبادل (باركر) ومساعدوه النظرات .. هذه الأوصاف ليست غريبة ..

ـ « أحضروا رجال الأمن ومن يقوم بقياس الإشعاع فى القبو .. »

وبعد دقائق جاء رجلا أمن إفريقيان يحملان مسدسيهما وكشافا ، ثم جاء (مايك) يحمل عداد (جايجر) ، ودون كلام كثير بدءوا يهبطون فى الدرج المؤدى إلى القبو ..

ومن خارج القبو جاء صوت (باركر) ـ كما فى لعبة المساكة ـ يسأل الرجال :

ـ « هيه ! هل من شىء مريب ؟ »

هنا رد أحد الرجال :

ـ « هناك الكثير من الفئران الميتة يا سيدى ! »



* * *

٦ ـ لا شيء هنالك ..

بقيت ثلاثة أيام على وفاة الطبيب الفنلندى (ميهـائيل فالتارى) ..

* * *

فى الكافتيريا ، قابلت (برنادت) التى كانت تنتهى من وجبة الغداء بسرعة توطئة للعودة إلى عملها ..

هززت رأسى محييًا وكدت أتجه إلى مائدة أخرى ، لكنها نادتنى إلى مائدتها ، وقالت :

ـ « بالله عليك اجلس .. »

وجلست دافنا رأسى فى طبقى ، ورحت ألتهم الطعام كالحوت الأزرق ، فسمعتها تقول لى فى شىء من مداعبة :

ـ هذا هو بالضبط ما أنذرتك منه .. إن الأمور لم تعد كما كنت .. الآن تفهم أنه كان الأفضل لو ظللنا صامتين ! »

هززت رأسى مؤمنًا ولم أقل شيئًا .. الحقيقة هى أن هناك خراريج لابد من التعامل الجراحى معها بدلاً من إبقائها مزمنة .. وأنا لم أفعل سوى أن حاولت فتح خراجى الخاص ، لكنها لم تعطنى الفرصة ..

قالت لى محاولة تغيير مجرى الكلام :

- « هل تعرف أنهم يفتشون القبو الآن ؟ »

نظرت لها فى غير فهم ، فابتسمت وأضافت :

- « يفتشون عن كائنات فضائية طولها قامتان ولونها أحمر .. وهى تطلق سائلاً لزجًا على الناس ولاتمتاز بالمودة .. »

- « يا للسخف ! »

قالت باسمة وهى تفتح علبة المياه الغازية .. فرووش !

- « أنا نفسى أرى هذا الرأى .. إنهم حيارى يوجهون الطعنات فى الظلام ولا يعرفون مع ماذا يتعاملون .. لكنى أحب أن أرى كيف تعيش هذه الكائنات التى طولها قامتان فى القبو .. إن طول الكائن الوحيد إذن قريب

من أربعة أمتار ، بينما ارتفاع سقف القبو متران ونصف أو أقل .. لابد أن هذه الكائنات تمشى محنية أو زاحفة طيلة الوقت ! »

ـ « أنت على حق . هل جن الجميع ؟ »

★ ★ ★

لا لم يجن الجميع ، لأن عداد (جايجر) بدأ يظهر نشاطًا زائدًا عن المعتاد ، وتوتر الرجال فى القبو ..

كان (باركر) يجن جنونًا كلما سمع عن فئران ميتة فى وحدته .. لكنه هذه المرة ابتلع الخبر ، فهذه فئران ميتة على كل حال .. لم يكن الوقت مناسبًا للوم عمال التطهير ..

من الخارج نادى (باركر) رجال الأمن :

ـ « هيه ! .. هل من شىء ؟ »

صاح أحد الرجال وهو يكتم أنفه بمنديل (لأنه حسب هذه الطريقة المثلى لاتقاء خطر الإشعاع ، ولا أدرى أى أحمق نصحه بهذا) :

ـ « يوجد نشاط إشعاعى هنا يا سيدى ! »

ـ « جميييل ! هل هو زائد عن الحد ؟ »

- « لا يا سيدى .. محدود جدًا »

- « إذن واصلوا البحث فى القبو عن مصدره ولاتتهوروا .. »

بالطبع كان هو فى أمان بالخارج لايخاف أثر هذه الإشعاعات على عينيه ونخاع عظمه ومخه وخصيتيه .. وبالتالى كان يرى أن هؤلاء الرجال بطيئون جدًا أغبياء إلى حد ما ..

واصل الرجال بحثهم وسط مواسير التدفئة والتبريد الموجودة في القبو .. كانت هناك بعض الصناديق القديمة ، وبعض الصناديق التى تحوى أجهزة لم تستعمل بعد ، وقد كتبت عليها تعليمات الشحن الشهيرة مع علامات قابل للكسر وهذا الجانب لأعلى .. إلخ .. بالطبع لم تكن هناك كائنات فضائية وإلا لقلت لك .. لماذا أكتم شيئًا كهذا ؟

الحقيقة هى أن الإشعاعات كانت تضعف أحيانًا حتى تختفى ثم تتزايد إلى حد معقول .. لكنهم لم يستطيعوا ربطها بجسم معين .. ونظر أحد الرجال إلى صناديق الشحن وسأل بلغة البانتويد زمليه :

- « هل يمكن أن يأتى من هنا ؟ إن هذه الأجهزة الكريهة تؤذى دائمًا »

لم يفهم حامل عداد (جايجر) هذه العبارة ، لكنه قال حين ترجمت له :

ـ « لاشىء من هذا .. هذه أجهزة (مونيتور) لوحدة القلب الجديدة .. لاينبعث من هذه الأجهزة نشاط إشعاعى .. »

وتشمم الهواء من حوله وغمغم :

ـ « الرائحة كريهة حقًا هنا .. كأنها رائحة دورة مياه عمومية »

قال أحد الرجلين وأنفه يتسع متشمما :

ـ « لا يوجد قبو عطر الرائحة .. ثم لا تنس أن هناك فئرانًا ميتة .. »

ابتسم (مايك) ، وفكر ـ بطريقة الرجل الأبيض العنصرية المتعالية ـ فى أن هذين الرجلين لا يمكن أن يلاحظا الروائح الكريهة .. ثم راح يتأمل الأرض .. كانت هناك بعض أكياس نهشتها الفئران نهشًا ، لكنه لم يستطع تبين ما كان بها لقد تبعثرت المحتويات واختلطت بالغبار على الأرض .. والقبو على كل حال يعج بالمهملات والفوضى كأى قبو فى العالم .. إن (باركر) لا يدخل هنا كثيرًا كما هو واضح ..

ومن الخارج جاء صوت (باركر) :

ـ هيييه ! هل توفاكم الله جميعًا ؟ »

شتم الرجل من تحت شاربه الكث ، ثم رفع عقيرته صائحًا :

ـ « لا يا سيدى .. لقد انتهينا تقريبًا »

ونظر إلى الرجلين الواقفين ، وأشعل لفافة تبغ سريعة ، وقال وهو يمتص الدخان فى جشع :

ـ « من أجل الرائحة فقط .. فلننته الآن من كل هذا ونخرج قبل أن نصاب بالعمى .. »

ضحك الرجلان فى فهم .. وانتظرا بضع ثوان حتى أنهى الرجل لفافة التبغ فى خمسة أنفاس عميقة ، ثم ألقاها أرضًا ووأدها بحذائه ، وهمس :

ـ « هيا بنا .. »

* * *

بقى يومان على وفاة الطبيب الفنلندى (ميهائيل فالتارى) ..

* * *

حين بدأت أعراض التهاب الحلق والحمى مع (ميهاتيل فالتارى) كنا نعرف هذه المرة ما علينا أن نتوقعه ..

أدخلوه وحده العناية المركزة ، وقد فكر المدير فى استعمال إحدى الغرف المعقمة Gnotobiotic التى لدينا ، لكن هذه لم تبدأ العمل بعد .. وحاولوا قدر الإمكان أن يهيئوا له بيئة نظيفة خالية من العدوى ، كما حقنوه بالمظلة المعتادة من المضادات الحيوية .. واقترح خبير أمراض الدم أن يتم نقل بعض الكريات البيضاء مع الجلوبيولين المناعى ..

قاموا بفحص دمه ، واختبروا فضلاته بالنسبة للإشعاع .. حقًا كان جسده يزخر بها .. لقد تلقى هذا جرعة أعلى من اللازم كما هو واضح ..

قال (آثر شيلبى) ـ بكسر الشين وتسكين اللام ـ وهو يمضغ سيجاره ويحاول أن يبدو رائعًا :

ـ « إن حمض الـ DTPA قد أظهر نجاحًا سابقًا فى حالات كثيرة .. »

سألناه فى غباء :

ـ « وما الـ DTPA يا أخ (شيلبى) ؟ »

قال فى ثقة :

- « إن اسمه طويل جدًا .. إنه (الكالسيوم داى إيثيلين ترايامين بنتا أسيتيك أسيد) .. لقد برهن على قدرة رائعة فى الاتحاد بالمعادن الثقلية المشعة ، وهو قادر على توجيهها لتفرز مع فضلات الجسم .. المشكلة هى أنه ليس موجودًا هنا .. »

- « ومن أين نأتى به يا أخ (شيلبى) ؟ »

- « من الإنترنت .. سأتصل بإدارة الطعام والدواء FDA أستعلم منها عن هذا العقار .. بعد هذا يمكن لأية طائرة أن تحمله إلى هنا من الولايات ، وستقوم السفارة الأمريكية بتسهيل الإجراءت .. »

ونظر فى ساعته وقال :

- « أتوقع أن يكون العقار هنا فى التاسعة مساءً .. »

وكنا وقتها فى العاشرة صباحًا ..

حقًا يتمتع هؤلاء الأمريكان بالدقة والتقدم .. وقد سيطروا على معطيات دنياهم بحنكة وبراعة ..

لكن المشكلة هى أنهم لم يقهروا الموت بعد ، ولن

يقهروه .. لقد توفى الطبيب الفنلندى فى السادسة مساءً بعدما هبطت دورته الدموية تمامًا .. وحين وصل العقار أخيرًا فى طائرة هليكوبتر ، حوالى العاشرة مساءً ، قال المدير :

ـ « لا بأس .. إن لم أكن مخطئًا فلسوف نحتاج إلى هذا العقار كثيرًا فى الأيام القادمة .. »

فى هذه المرة لم يكن بوسع واحد أن يرفض تشريح الطبيب الفنلندى ..

كانت حالة اكتئاب عامة تغمر الوحدة ، وشعور عام بأننا محاصرون ، وأننا جميعًا ذاهبون إلى عناية البروفسور (جيديون) الفائقة .. لكن الرجل لم يكن كالحانوتى الذى يلعب دوره (عبد الفتاح القصرى) فى أفلامنا .. كان عالمًا بحق وقد أنقذنى علمه من دوامة الحيرة مرارا من قبل ..

لهذا تأكدت أنه ما من أحد يرانى حتى لا أتهم بقسوة المشاعر ، وتوجهت إليه فى المشرحة ..

★ ★ ★

٧ ـ مقالة عن الإشعاع وآثاره ..

جالسًا أمامه فى رهبة ، سألته :

ـ « ما الذى يحدث فى أجسادنا حين نتعرض إلى الإشعاع ؟ »

قال (جيديون) وهو يتأمل المكتب أمامه كأنما يتذكر :

ـ « هذا فرع كامل من الطب .. فرع لم يكن أحد يعرفه قبل قنبلة (هيروشيما) وتريد أن ألخصه لك فى كلمات ؟ »

ابتسمت وقلت :

ـ « إذا سمحت لى سأحكى لك قصة مسلية .. إنها عن ملك قوى انشغل فى مشاكل الحكم والحروب .. إلخ .. وفى يوم استدعى حكيم الحكماء وقال له إنه يريد معرفة تاريخ البشرية .. انصرف الحكيم وغاب عشر سنوات ثم عاد بعشر مجلدات ضخمة ، كل مجلد على ظهر حمار .. فلما رأى الملك المشهد صاح مغضبًا : أنت ترى أنه لاوقت

عندى لهذا كله .. اختصر يا حكيم .. اختصر . انصرف الحكيم وعاد بعد خمس سنوات بخمسة حمير على ظهر كل منها مجلد .. فقوبل من الملك بغضبة مماثلة ودعوة للمزيد من الاختصار .. هنا انصرف الحكيم وغاب سنة واحدة ، ثم عاد إلى الملك بمجلد واحد على ظهر حمار واحد . كان هذا الأخير قد هرم ووهن بصره ، من ثم طلب من الحكيم أن يختصر تاريخ البشرية أكثر .. غاب الحكيم شهرين ثم عاد إلى الملك بورقة واحدة .. ورقة بها تاريخ البشرية كله . لكن الملك كان على فراش الموت .. وقال للحكيم : يؤسفنى أننى لن أجد الوقت الكافى لمعرفة تاريخ البشرية .. إن الموت أسرع منى ومنك .. هل يمكنك أيها الحكيم أن تحكى لى تاريخ البشر فى جملة واحدة ؟ قال الحكيم الذى أنهكته الشيخوخة بدوره : يا مولاى .. الناس ولدوا فعانوا فماتوا ! كان هذا كل شىء ومات الملك راضيًا » .

كما توقعت ، شاعت ابتسامة فى وجه (جيديون) القاسى الصارم ، حتى لتسمع صوت قسماته وهى تتهشم من جراء هذا التغير الجيولوجى ، وقال :

- « أنت إذن تريد أن تكون هذا الملك وأنا هذا الحكيم .. ؟ »

- « لو لم أكن وقحًا أكثر من اللازم .. »

- « لا بأس .. من الجميل أن ألعب دور الملك ولو مرة .. لكن تذكر أن الطب غير قابل للتلخيص فى جملة .. »

لم أقل إن (ابن سينا) العظيم حاولها ونجح فى بيتيه الشعريين الشهيرين (وكل شىء عند العرب كان يصلح أن يكون شعرًا) :

ثلاث هن من شرك الحِمام ... وداعية السليم إلى السقام
دوام مدامة ودوام وطء ... وإدخال الطعام على الطعام

بدأ (جيديون) يتكلم ، وحين يتكلم (جيديون) على المرء أن يصغى :

- « يعتمد تأثير الإشعاعات المؤينة على جرعة الإشعاع ونوعه ومعدل التعرض له ، وبالطبع يكون التعرض المزمن أخف وطأة من التعرض المباشر الحاد ؛ لأن الخلايا تستطيع أن تجدد نفسها بشكل أو بآخر .. لكن - بالطبع - التعرض المزمن يفتح الباب لخلل ناجم عن

تدمير أو تنشيط جينات معينة فى الخلايا .. هذه الجينات قد تؤدى إلى الانقسام غير المنظم للخلية وبعبارة أخرى : السرطان ..

« التعرض الحاد للإشعاع بجرعات أكثر من ٤٠٠٠ راد يؤدى لتورم خلايا المخ والتشنجات والصدمة فالموت خلال ٤٨ ساعة .. وهذا هو السيناريو الذى أجد أنه الأمثل لتفسير ما حدث بالنسبة ذلك المريض الكاميرونى .. الجرعات من ١٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ راد تؤدى إلى فقد شديد للسوائل وشلل النخاع ، وفى العادة يكون الموت خلال عشرة أيام .. الجرعات التى تقل عن ١٠٠٠ راد وتزيد على ١٠٠ راد تؤدى لتدمير النخاع فالموت خلال شهر . قد يسبب الإشعاع حروقًا خطرة أو تدميرًا للأوعية الدموية مما يسبب الغنغرينا .. لكن هذه الحروق على كل حال ليست أكثر خطرًا من حروق الشاى الساخن ، وتعالج بنفس الطريقة ، طبعًا مع غسيل الموضع بالكثير من الماء والصابون ..

« التعرض المزمن للإشعاع ـ بجرعات أعلى من ١٠٠ راد ـ تظهر آثاره على الكلى والرئتين والنخاع

العظمى وعدسة العين .. السرطان أيضًا يظهر بشكل واضح فى حالات التعرض المزمن للإشعاع لنفس السبب الذى ذكرته لك : إهانة الجينات .. والجينات لا تنسى أية إساءة تحدث لها ..

« إن الانشطار النووى لليورانيوم والبلوتينيوم ، يخلق نحو ٣٠٠ نوع مختلف من النظائر المشعة .. بعضها يملك نصف حياة أطول من سواه .. وبعبارة أقرب للفهم : بعضها يعيش أكثر من سواه .. السترونيوم ـ ٩٠ على سبيل المثال يعيش ٢٨ سنة .. ولهذا هو مشكلة حقيقية بالنسبة لتلوث الطعام والنباتات .. وخطر السترونيوم ـ ٩٠ هو أنه يتصرف مثل الكالسيوم بالضبط ، لذا ترسبه الحيوانات فى عظامها ، والنباتات فى جذورها .. وهذا ـ كما هو واضح ـ يؤدى إلى سرطان العظام والدم معًا ..

« هذه هى مشكلة ما يسمونه بالـ Fallout وهو موضوع مهم بالنسبة لعلماء الانشطار النووى .. إنه أثر سقوط المواد المشعة على التربة واختلاطها بطعام البشر ومائهم .. إن الحكومة الأمريكية لم تصدق أن تجاربها فى الصحراء مؤذية ، وظلت تنكر هذا لفترات طويلة ، حتى صدر أول حكم من المحكمة ، يؤكد علاقة سقوط

المواد المشعة بعدد من حالات السرطان ظهرت فى ولاية دانية من موضع إحدى التجارب ..

« ثم جاءت حادثة مفاعل (شيرنوبيل) عام ١٩٨٦ لتكون بمثابة عيد للطب الذرى .. هذا يوم لاينسى ، وكل ماتنبأ العلماء به وأنذروا البشرية ضده ، قد تحقق .. إن الكابوس حقيقى إذن ولا داعى لدفن الرءوس فى الرمال .. »

سألت (جيديون) وقد بدا لى أنه أنهى محاضرته القصيرة :

ـ « هل وفاة الفنلندى تندرج تحت هذه القاعدة ؟ »

فكر قليلاً ليزن كلماته ، ثم قال :

ـ « من الواضح تمامًا أنه تعرض لإشعاع جرعته أكثر من ١٠٠ راد ، على فترة طويلة ممتدة .. نفس الشىء ينطبق على خنازير غينيا التى قمت أنت بتشريحها .. »

ـ « والبقايا .. هل هى خطرة ؟ »

ـ «نعم .. لكن ليس على المدى القريب إذا كنت تخشى هذا .. ومن رأيى أنه يجب دفنها تحت الأرض وسط الخرسانة بحيث لاتؤثر على أية حياة نباتية أو حيوانية .. »

فكرت فى السؤال التالى :

- « هل حقًا تعتقد أن حمض الـ DTPA مفيد لهذه الحالات ؟ »

لم يكن مولعًا بـ (آرثر شيلبى) .. أو لنقل إنه لم يهم به حبًا يومًا ما ، لكنه كان يحترم عقله .. قال لى :

- « (شيلبى) بطبعه مبهرج الأسلوب ، مولع بالحلول المسرحية .. ولو لم يكن طبيبًا لصار أفضل مقدم فقرات فى السيرك .. إن (الكالسيوم داى إيثيلين ترايامين بنتا أسيتيك أسيد) حل جيد .. ربما هو الحل الوحيد ، لكنه يؤدى إلى نفاد الزنك من الجسم .. والزنك عنصر حيوى .. إن نقصه قد يؤدى إلى فشل كلوى أو نزف معوى لايمكن إيقافه .. بالتالى لايمكن أن يطول أمد هذه المعالجة ، وبالتأكيد هى أخطر أحيانًا من الإشعاع ذاته .. »

بعد برهة صمت أخرى سألته :

- « ما رأيك فى موضوع غزاة الفضاء هذا ؟ »

قال فى رزانة :

- « لا أرفضه ولا أقبله ما لم يأتنى أحدهم بدليل واضح .. وعلى قدر علمى لا يوجد دليل على طبق طائر فضلاً عن كونه مشعًا .. »

وأشار بكفيه المفتوحتين إلى كومة الأوراق أمامه وقال :

ـ « لديك هنا مشاكل .. كومة من المشاكل الحقيقية .. يمكنك أن تتعامل معها وتنسى كل شيء عن أى شيء آخر لا تؤيده القرائن .. لديك حالة تلوث إشعاعى واضحة فى (سافارى) .. وهذا الإشعاع يتراوح من ١٠٠ إلى ٤٠٠ راد .. عليك إذن أن تجد الحل .. »

ـ « ومن الذى يملك هذا الحل ؟ »

ـ « الأمر أكبر منا .. لا بد من أن يقوم أحد هؤلاء التنابلة فى الإدارة بالاتصال بـ (ياوندى) .. نريد خبراء فى الطاقة الذرية .. »

ثم نظر فى ساعته وقال فى صرامة :

ـ « هل قمت بتلخيص تاريخ البشرية فى جملة واحدة ؟ »

ـ « أعتقد هذا يا سيدى .. لقد فعلت هذا أو كدت »

ـ « إذن .. انصرف ! »

★ ★ ★

٨ ـ المسح ..

بعد يومين سمعت طرقات على باب حجرتى فى الصباح الباكر ، ففتحته فقط لأجد أغرب مجموعة من رواد الفضاء فى حللهم البراقة .. مشهد غريب جدًا فى الصباح .. وتكفل النعاس بجعلى أتوهم للحظة أن هؤلاء من غزاة الفضاء ، وأنهم جاءوا من الطبق الطائر إياه ..

ثم تكلم أحدهم من وراء قناعه وكان صوته عميقًا مكتومًا :

ـ « لا تخشى شيئًا .. مهمة روتينية .. »

كيف لا أخشى شيئًا وهذه المجموعة العجيبة تقتحم حجرتى ، وقد تكفلت ثيابهم بجعلهم لا يمتون للبشر بصلة ؟ على أننى فطنت إلى أنهم فى الغالب من رجال الطاقة الذرية ، وفى الغالب من (ياوندى) شخصيًا .. إن (بارتلييه) لم يضع وقتًا أكثر وبالتأكيد أمطر (ياوندى) بالاستغاثات الملحة ..

قاموا بمسح الحجرة مسرعين بجهاز ما ، واهتموا



بعد يومين ، سمعت طرقات على باب حجرتى فى الصباح الباكر ، ففتحته لأجد أغرب مجموعة من رواد الفضاء ..

بأحذيتى بشكل خاص .. إذ قلبوا كل حذاء وراحوا يفحصون الغبار الملتصق بالنعل .. بدا من روتينية حركاتهم أنهم لم يجدوا شيئًا ، وأن هذا تكرر فى أكثر من حجرة ..

لم أتبين بوضوح جنسياتهم من وراء الأقنعة ، لكن بدا لى أن اثنين أو ثلاثة منهم غربيون .. وفى النهاية شكرنى أولهم بلهجة مهذبة وبفرنسية تشى بأنه فرنسى ، وانسحبوا من المكان ..

* * *

يا له من حصار يا إخوانى ! لكم أن تراهنوا على أن المشهد كان رهيبًا حين خرجت من حجرتى .. هؤلاء الرجال فى كل مكان يفحصون كل شىء ، حتى تذكرت غزو تلك المجموعة من المرتزقة للوحدة منذ عام ..

بعد قليل جاءنى (بسلم) وعلى وجهه علامات الاستمتاع وسألنى بالفصحى كعادتنا فى التخاطب :

- « هل رأيت هذا السيرك ؟ »

- « رأيته ولا أشعر براحة على الإطلاق .. »

أشار إلى الوراء وقال وهو يهز كتفيه :

ـ « يشكون فى وحدة الغسيل الكلوى .. »

ـ « سيكون هذا غريبًا .. وحدات الغسيل الكلوى لاتستعمل المواد المشعة .. »

ـ « لا أدرى السر ، لكن من الواضح أن عداداتهم تشير إلى نشاط إشعاعى بالغ القوة هناك .. »

بعد ثوان ظهر (بارتلييه) مرهقًا بادى التوتر ، ومر بنا فلم نظفر منه إلا بنظرة عابرة .. كأنما لم يدر كنهنا قط ..

كان (سباترانى) أستاذ الجراحة الإيطالى يمشى خلفه ـ مرتديًا بيجامة الجراحة ـ ويلوح بذراعيه فى الهواء صائحًا :

ـ « مام ماميا ! كله إلا قسم الجراحة يا (موريس) .. كله إلا الجراحة .. إن لدينا قائمة مرهقة للعمل اليوم ! »

قال (بارتلييه) دون أن ينظر للوراء :

ـ « لقد قررت إلغاء جميع الجراحات .. أنت لاتفهم .. إن الأمر أخطر من تلوث بالكزاز .. إن ..... »

ثم نظر للوراء فوجد أن عـدد الأوغـاد الذيـن أرهفـوا آذانهم للسماع أكثر من الـلازم ، فتـوتر .. مد يده يمسك بكتف الجراح الإيطـالى ، وبدأ يتكلم همسًا هـذه المـرة .. كان من الواضح أن الإيطالى غاضب بجنون ، وأن المدير يحاول امتصاص غضبه هذا .. بالطبع لم يكـن مفـر مـن إلغاء الجراحات حتى إعلام آخر .. إن الإشعاع ليس مـن الأمور التى يمكن المزاح فيها ..

فيما بعد بدأت الأخبار تتسرب أكثر فأكثر ..

يبدو أنهم وجدوا إشعاعات فى غرف الغسيل الكلوى .. إشعاعات لم يستطيعوا تحديد مصدرها ، ولكنهم حين عاودوا الفحص فى الظهيرة لم يجدوا شيئًا .. نفس الشىء تكرر مع غرف الجراحـة .. والآن بدأ الشك يحـوم حـول قسم الأشعة ، لكن أجهزة الأشعة كانت محكمة ، وكانت الغرف مبطنة بالرصاص جيدًا بحيث لا تسمح بأى تسرب ..

ثمة إشـعاعـات تنبعث من القبـو ـ كما قلنا من قبـل ـ لكنهم لم يجدوا مصدرها .. فى النهاية وجـدوا مجموعـة مـن الأكيـاس الممزقـة السـوداء التـى مزقـت الفـئران محتوياتهـا .. لم يستطيعوا تحديد ما كان فيهـا ، من ثم

حملوا البقايا ووضعوها فى كيس واق .. فالحقيقة الوحيدة هنا هى أن هذه البقايا كانت مشعة بقوة ..

وفى المساء دعانا - كل أفراد الوحدة - (بارتلييه) إلى لجتماع به فى (التيوتور) ..

قال لنا وقد وقف على المنصة يداعب مكبر الصوت بأنامله :

- « أعتقد أنكم جميعًا تعرفون ما يحدث هنا الآن .. لو لم تتضح الأمور أكثر فى الغد ، سيكون من واجبى إنهاء العمل فى وحدة (سافارى) .. إن مهمتى هى الحفاظ على حياة الموجودين هنا ، كما هى الحفاظ على حياة مرضانا .. »

قال أحدهم فى حماس :

- « نحن لن نتراجع عند أول خطر يهددنا .. »

كان أحمق ، وودت لو عرفت من هو ذلك الأحمق ، لكنى لم أتبينه .. إنه يحسب الحماس وحده كافيًا لمقاومة الإشعاع ، ولو صح هذا لتلاشى خطر القنابل الذرية تمامًا .. كل ما على القوم الذين تهوى عليهم قنبلة ذرية

هو أن يتحمسوا .. ولحسن الحظ لم يول (بارتلييه) هذا الكلام اهتمامًا ، وقال :

- « أنا أتحمل مسئولية الجميع ، وقد اتخذت قرارى .. »

هنا رفعت (برنادت) يدها طالبة الكلمة .. وكان هذا غير معتاد لأن من يتكلمون فى هذه الاجتماعات لايزيدون على أربعة فى الغالب .. وكلهم من سن ووزن (آرثر شيلبى) فصاعدًا ..

نظر لها المدير متسائلاً .. فرفعت صوتها الذى خرج حادًا متحشرجًا بعض الشىء شأن الممثلات المبتدئات :

- « سيدى .. هل لنا أن نعرف بالضبط ما توصل إليه الرجال الآتون من (ياوندى) ؟ »

قال (بارتلييه) فى تعاسة :

- « توصلوا إلى أن الإشعاعات تظهر وتختفى فى كل مكان بلا سبب ، وتتباين قوتها من حين لآخر .. »

- « وهل لديهم تفسير لهذا ؟ »

- « لم يقولوا شيئًا .. إنهم سيدرسون النتائج ويخبروننا .. »

ـ « قيل إنهم وجدوا بعض الأكياس الممزقة فى القبو .. فهل عرفتم ما كان بها ؟ »

ابتسم المدير فى تعب ونظر إلى السقف وقال :

ـ « فضلات آدمية ! »

ـ « ماذا تعنى ؟ »

ـ « براز ! إذا كان هذا القول لا يتنافى مع اللياقة .. لقد دفعت الفئران ثمن شراهتها غاليًا لأن الفضلات كانت مشعة ! »

تصاعدت صيحات الدهشة .. وترددت الكلمة كريهة الرائحة بكل اللغات .. ما معنى هذا لو كان له معنى ؟

قالت (برنادت) فى لهجة واثقة برغم وهن صوتها :

ـ « الأمر واضح .. إن مصدر الإشعاع يتحرك .. إنه بيننا !! »

* * *

ـ « بيننا ! بيننا ! »

ساد الهرج والمرج وراح الكل يتكلم فى صوت واحد

بأكثر من لغة .. لا بد أن عبارة (بيننا) قيلت بألف لغـة الآن .. هنا وجد (بارتلييه) نفسه مضطرًا إلى أن يقرع المنضدة مرارًا بكفه كقاض حازم ، وصاح :

ـ « الهدوء ! أنا لا أسألكم الكثير ! »

ثم نظر إلى الطبيبة الكندية المتحمسة وتساءل :

ـ « هل تعتقدين أن هناك من يشـع بيـن هـذا الطـاقم يا د. (جونز) ؟ »

ابتسمت برغمها لغرابة الفكرة ، وقالت فى كياسة :

ـ « بل إن هناك من يحمل مصدر الإشعاع ويتخلص منه من حين لآخر .. تارة يدنو من أجهزة القياس وتارة ينأى .. لا يوجد تفسير آخر لإشعاع يغير مكانه وجرعته من حين لآخر .. »

هنا نهض (شيلبى) فى عصبيـة وقـال وهو يمضـغ سيجاره :

ـ « هذا تهريج علمى بلا شك .. لا أحد يمكن أن يحمل مصدرًا للإشـعاع دون أن يموت به .. مـا لـم يرتـد ثيابًـا واقية من الرصاص طبعًا ، ولا أحسب أحدًا فى (سافارى) يرتديها الآن على قدر علمى .. »

من جديد نظر (بارتلييه) إلى (برنادت) وسألها :

ـ « وهل لديك اقتراح معين يا د. (جونز) ؟ »

قالت على الفور :

ـ « أرى أن يخضع كل أفراد (سافارى) لفحص مدقق أمام عداد (جايجر) ، وليكن هذا الآن قبل أن يجد واحد فرصة لإفراغ جيوبه .. هل يمكن ترتيب هذا ؟ »

ساد الصمت .. ثم بدأت الهمهمة والضوضاء ..

أخيرًا مال (بارتلييه) على المنضدة ، ونظر إلى (مايك) فنى الأشعة الأمريكى ، والذى جعلته الضرورة خبير الإشعاع الأهم بالنسبة لنا .. وقال له :

ـ « ما رأيك يا (مايك) ؟ »

ابتسم (مايك) من وراء شاربه الكث ، فهو مستمتع بكونه صار أهم شخص فى الوحدة فى الفترة الماضية .. وقال وهو يتأهب للنهوض :

ـ « لحظة واحدة وأعود يا سيدى .. »

تعالت أصوات الاحتجاج ، وبالطبع راح البعض

يتكلمون عن خصوصيتهم وعدم قبولهم التفتيش الذاتى وما إلى ذلك ..

هنا قال (بارتلييه) فى سرعة بديهة لم أعتدها منه قط :

- « لو كان أحد فى هذه القاعة يرى من حق الإنسان أن يكون مصدر إشعاع ، فليرفع يده اليمنى .. »

طبعًا لا أحد .. فعاد يقول :

- «ولو كان واحد يرى أن الوقوف أمام عداد (جايجر) إهانة فليرفع يده اليمنى .. »

طبعًا لا أحد .. وما لزوم هذه الضوضاء إذن ؟ إن الناس لا تكف عن السخف ، ولقد طلب ابن (جحا) من أبيه أن يعلمه السماجة فقال له : « تعالى على الهايفة واتصدر » .. أى اهتم أكثر من اللازم بالأمور التافهة لتضمن لنفسك مكانًا بين السخفاء ..

أخيرًا عاد الأخ (مايك) بجهازه الثمين ، وبأمر من (بارتلييه) نهضنا ووقفنا فى صف طويل .. وراح كل منا يمر أمام الرجل الواقف أمام الباب والممسك بالجهاز .. هنا يقول (مايك) بلهجة من يمنح العفو :

- « نظيف .. »

فيخرج الرجل وهو يتنهد الصعداء ، أو يرفع ذراعيه بحركة مسرحية توحى بنظافة الذيل ويخرج عائدًا إلى عمله ..

وجاء دور (برنادت) فوقفت أمام الجهاز وتأملته كطفلة مبهورة ، وسألت الرجل :

- « ألا يصدر هذا العداد صوت أزيز حين يشعر بالإشعاع ؟ »

- « ليس فى هذا الطراز .. إننى أقرأ انحراف الإبرة فقط .. »

وتدريجيًا فرغت القاعة ممن كانوا فيها .. ربما باستثناء (بارتلييه) وأنا و(باركر) ..

اتجه الرجلان إلى الجهاز فى أريحية كأنما يضربان المثل للأجيال القادمة ، فلم يكن أحدهما مشعًا .. ومررت بدورى لأسمع كلمة (نظيف) .. ثم خطوت إلى خارج القاعة حيث كان الجميع تقريبًا واقفين يتحدثون ويمزحون ، وقد راق لهم هذا الموقف الدرامى الذى يكسر روتين الحياة الممل ..

هنا صاح (باركر) فى عنجهية :

- « فليعد كل إلى عمله .. ولسوف نطلبكم لو حدث تعديل فى خططنا .. »

وصاح المدير وهو يتدحرج نحو مكتبه :

- « ربما نبدأ إخلاء الوحدة غدًا عند الظهر .. سيبلغكم د. (باركر) بالتفاصيل .. »

هنا تذكرت شيئًا فلحقت بالمدير صائحًا :

- « سيدى .. ثمة أمر نسيناه .. »

سألنى وهو مستمر فى التدحرج دون أن يتوقف :

- « وما هو يا (علاء) ؟ »

- « موضوع الطبق الطائر هذا ، ولماذا بدأت التغيرات بعده .. »

قال مغتاظًا :

- « لقد فعلنا ما بوسعنا ، لكننا لم نجد سوى كلمات بعض العمال الأفارقة .. قل لى بربك ماذا أفعل ؟ »

كانت أعصابه حقًا مرهقة ، لذا آثرت الصمت قبل أن ينفجر فى ..

* * *

٩ ـ فلنفتش حاجياته ..

كانت واقفة فى الحديقة فى ضوء الغروب الغريب .. الضوء الذى يستعصى على التصنيف والوصف ، والذى أضنى الفنانين الفرنسيين التأثيريين فى نهاية القرن الماضى .. هل هو أزرق ؟ هل هو أحمر ؟ هل هو قرمزى ؟ هل هو خليط من هذا كله ؟ وكان الحل الوحيد الذى وجدوه هو أن يستعملوا (باليتة) ألوان لا يمكن وصفها بدورها .

كانت واقفة هناك ، وكانت تدخن .. الدخان المتصاعد يصطبغ بلون الغروب الغامض ، فيخلق رؤى لا تمت لعالمنا هذا .. الحقيقة أنه من النادر أن يرى المرء (برنادت) تدخن ، لكنها لا تنكر أنها تفعلها من حين لآخر .. ربما تشعل لفافة تبغ كل ثلاثة أشهر .. والسبب فى هذه المرة واضح : إنها فى حالة حيرة واكتئاب شديدين ..

دنوت منها فى حذر ، متهيبًا أن أقطع صلاتها الصامتة هذه أو رحلتها فى عوالم المجهول .. وبقشعريرة مناسبة تذكرت قصيدة (إيليا أبو ماضى) الحالمة : « سلمى بماذا

تفكرين ؟ سلمى بماذا تحلمين ؟ » .. كنت أهيم بهذه القصيدة حبًا فى مراهقتى ، برغم أن كتّاب محفوظات الوزارة أصر على أنها (زفت) .. والسبب هو أن الوزن يحتم ألا يكون هناك تشديد على الكاف فى (تفكّرين) .. بينما فعل (تفكْرين) ـ بسكون الكاف غير المشددة ـ لاوجود له فى العربية .. ولو جرؤت وقتها وأعلنت أننى أحب هذه القصيدة لظللت فى المدرسة الثانوية حتى اليوم ..

كان من الممكن أن أرحل لكنى لم أستطع مقاومة فكرة الدنو من (برنادت) فى هذه الحالة من الذوبان فى لجة الشرود .. سألتها همسًا وقد أدركت أنها لاحظت وجودى فلم تجفل :

ـ « سلمـ .... أ .... (برنادت) .. بماذا تفكرين ؟ »

أطلقت سحابة من الدخان وسعلت ، وقالت :

ـ « فى كل هذا العبث الذى نعيشه الآن .. »

بالطبع .. لايمكن أن تختلى بنفسها الآن لتفكر فى سر هجرات الطيور ورحيل الفصول .. وكنت أخشى أن تحسبنى سأعاود تقديم عرضى السابق ، لذا قررت أن أنصرف حالاً .. لكنها استوقفتنى سائلة :

ـ « (علاء) .. كيف يعلن عداد (جايجر) عن وجود إشعاع من عدمه ؟ »

قلت لها وقد فاجأنى السؤال العجيب :

ـ « كنت أحسبه يطلق صوتًا .. نوعًا من البيب بيب .. لكن من الواضح أن عدادنا لا يفعل .. »

أطلقت سحابة أخرى ، وقالت وقد ازداد وجهها إظلامًا .. كأنما يذوب فى الليل الوشيك نفسه :

ـ «لم يجر (مايك) فنى الأشعة الاختبار على نفسه .. ماذا لو كان هو مصدر الإشعاع ؟! »

توقفت عن الحماس ، ونظرت لها محاولاً فهم ما ترمى إليه .. حتى لو كان الضوء كافيًا فللغموض ظلامه الخاص :

ـ « إن (مايك) يقرأ الجهاز جيدًا ولو تبين وجود إشعاع لكان قد .... »

ـ «وماذا لو كان يخدعنا ؟ إنه الوحيد الذى يستطيع فهم معطيات الجهاز ، والجهاز لا يعطى صوتًا مميزًا لوجود إشعاع .. كيف نعرف أنه نظيف حقًا كما يقول لنا ؟ »

تصلبت فى مكانى ..

هذه ناحية أخرى من التفكير لم تخطر لى ببال قط .. ماذا لو كان يخدعنا ؟ كيف نعرف أنه نظيف ؟ غريب هذا لكنه لا يخلو من المنطق ..

* * *

سلمى بماذا تفكرين ؟ سلمى بماذا تحلمين ؟

إنها ـ ببساطة ـ تفكر فى عداد (جايجر) ..

* * *

سألتها مترددًا :

ـ « هل .. هل وجدت ما يثير ريبتك فيه من قبل ؟ »

قالت وهى تنظر إلى الليل الإفريقى الذى بدأ يسيطر بقوة على الأحراش البعيدة :

ـ « لا أدرى .. إنه وجه جديد أولاً .. ثانيًا هو الوحيد الذى يعرف شيئًا عن الإشعاع الذرى ، وكل معلوماتنا مستقاة منه .. ثالثًا : لقد كان يتفقد الوحدة مع رجال الطاقة الذرية القادمين من (ياوندى) .. »

ـ « حقًا ؟ هل كان يرتدى بذلة واقية ؟ »

ـ « لا .. كان يلحق بهم أو يتقهقر .. يدنـو ويبتعد .. ومع دنـوه وابتعـاده كان المؤشـر يثب لأعلى ولأسفل .. وكان صوت البيب بيب ينبعث من أجهزتهم .. لكنهـم لـم يفهمـوا ، ولم يفهم هـذا أحد .. فى البداية دخلوا وحـدة الغسيل الكلوى ، وكان ينتظرهم بـالداخل .. عندهـا بـدأت الأجهزة تصدر صوتًا .. فلما عادوا بعد ذلك لم يدخل معهـم ، من ثم ظلت الأجهزة ساكنة .. نفس الشىء تكرر فى قسم الجراحة .. إلخ .. صدقنى هذا هو التفسير الأوحد .. »

ظللت صامتًا عاجزًا عن التفكير الصائب ، ثم قلت لها :

ـ « وكيف لا يموت هو نفسه ؟ »

ـ « لا أعرف .. ثمة ثغرات فى كل نظريـة ، وحتـى النظرية النسبية ذاتها .. »

ـ « ولماذا يفعل ذلك ؟ »

ـ « لا أعرف .. ثمة ألغاز فى كل مكان من العالم .. فلماذا يكون هذا الرجل استثناء ؟ »

ـ « وماذا يجب عمله ؟ »

ـ « تفتيش حاجياتـه طبعًا .. حين يبتعد عن غرفته

لفترة مطمئنـــة .. إن اقتحام أيـة غرفـة فـى (سـافارى) عملية هينة كما جربنا جميعًا .. »

سألتها فى غباء :

- « وكيف نبعده عن غرفته ؟ »

- « لهذا صارحت المدير بأفكارى ، بـالطبع استثنيت موضوع نية التفتيـش هـذه .. وطلبت منـه أن يستدعى (مايك) إلى مكتبــه لاستجوابه عن بعض التفـاصيل .. معنـى هـذا أن (مـايك) سيكون فـى مكتب المدير لمـدة نصف ساعة على الأقل ، ومن المؤكد أنه لن يغادرهـا .. ولهذا أنتظر أنـا هنـا حتـى أسمع من يسـتدعيه خـلال مكبرات الصوت .. »

ثم التمعت عيناها فى الظلام ، وقالت بلهجـة مـن لـن يرفض له طلب :

- « أما وقد عرفت الأمـر الآن ، فلا أرى ما يمنع أن تقوم أنت بهذا .. إنها كما ترى مهمة رجل ! »

حقًا هى مهمـة رجـل .. لكن لمـاذا أقبلهـا ؟ هـل لأن الشكوك مقنعـة أم لأن (برنـادت) هـى مـن طلـب ذلـك ؟ لا أدرى وإن كنـت أفضـل أن يكون الجـواب هـو الأول ..

أفضل ألا أكون معدوم الإرادة ، وأن تكون خياراتى هى خياراتى أنا .. ووليدة قناعاتى الخاصة أنا ..

قلت لها وأنا أملأ صدرى الضيق بهواء الليل :

ـ « لن أتركك تجربين شيئًا كهذا .. ليكن .. سألعب دور الأحمق .. ولكن متى أتحرك ؟ »

هنا سمعنا صوت مكبر الصوت يدوى من داخل البناية :

ـ « الفنى (مايك نورتون) مطلوب فى مكتب المدير حالاً »

* * *

بعد دقائق كنت أقف على باب حجرة الرجل .. أنظر إلى اليمين واليسار فلا أجد إلا ممرًا خاليًا يغمره ضوء النيون الخافت .. أمد يدى فى جيبى بحثًا عن المفاتيح الثلاثة : مفتاحى ومفتاح (برنادت) ومفتاح (بسام) .. لابد أن ينفتح الباب بواحد منها .. لا أظن (مايك) اتخذ حذره أو لاحظ هذا لأنه وجه جديد على (سافارى) ، وبالتأكيد لا يعرف القاعدة الشهيرة : كل مفتاح يفتح أى قفل ، وإلا فإن أقرب ذيل سحلية يؤدى الغرض تمامًا ..

فشل مفتاحى ومفتاح (برنادت) ، لكن مفتاح (بسام) أدى الغرض تمامًا ..

ودلفت إلى الغرفة ..

* * *

ولم أكن أعرف أن (بارتلييه) يصاب بنوبات قلبية أحيانًا ..

ولم أكن أعرف أنه مر بإحداها من دقائق ، وأنه وضع قرصًا من (النيتروجلسرين) تحت لسانه وجلس منهكًا والعرق يتفصد من جبينه وأعلى صدره .. أذناه تصفران والألم يتراجع ببطء من كتفه الأيسر الذى كاد يصير مملكة محتلة .. .

هنا سمع صوت السكرتيرة عبر الدكتافون تخبره أن (مايك نورتون) ينتظر بالخارج ..

ـ « (مايك) من ؟ »

ـ « فنى الأشعة يا سيدى .. لقد طلبت مقابلته .. »

فك ربطة عنقه ودس إصبعًا بين لحم عنقه الشحيم والياقة ، ثم قال لها بصوت حاول أن يكون طبيعيًا :

ـ « لا أستطيع لقاءه الآن .. قولى له أن يـ .. يجىء فى .. فى العاشرة صباحًا .. »

وسمع السكرتيرة تعتذر لـ (مايك) فى الخارج ، وشعر بأن حاله أفضل نوعًا ..

* * *

كنت أنا فى الغرفة إذن أتفقدها على ضوء الكشاف الصغير الذى فى جيبى .. لست راغبًا فى استعمال الضوء الكهربى حتى لا يشعر أحد بالخارج بأن هناك شيئًا غريبًا ..

كانت حجرة عادية جدًا ككل حجرات (سافارى) ولاتحمل طابعًا شخصيًا مميزًا .. هذا الرجل لا يعلق صورًا تروق له أو يضع تذكارات مهمة هنا وهناك ..

اتجهت إلى خزانة الثياب وفتحتها .. بضعة معاطف معلقة وبعض الثياب و .... هنا لاحظت شيئًا غريبًا فى أسفل الخزانة .. كأنه رأس مقطوع .. رأس مقطوع هنا ؟ كما يفعلون فى أفلام الرعب حين يضعون الرأس المقطوع المستحوذ فى الثلاجة .. إن (برنادت) تتوقع أشياء غريبة هنا لكن إلى هذا الحد !!



هنا لاحظت شيئاً غريباً فى أسفل الخزانة .. كأنه رأس مقطوع ..

انحنيت أكثر فأدركت أن هذا ليس سوى رأس دمية مما يضعه حلاقوا النساء فى محلاتهم .. رأس ثبتت عليه جمة من الشعر الأشقر الكثيف .. غريب هذا ! إذن (مايك) يضع شعرًا مستعارًا .. والأسوأ هو ما رأيته مثبتًا إلى الرأس فى منتصف الوجه .. خصلة شعر لها مظهر الشارب .. شارب أشقر كث .. شارب يشبه شارب (مايك) بالضبط ..

لو كان هذا هنا فما لون شعر (مايك) الحقيقى ؟ ولماذا يثبت شاربًا مستعارًا ؟ وما الذى يضعه على رأسه الآن إذن ؟

راح قلبى يخفق كالطبل ، بينما أحاول العثور على أشياء أكثر فى هذه الخزانة الغريبة .. لم أجد شيئًا آخر ، فقررت أن أستكشف الحمام ..

كانت الغرابة الحقيقية تبدأ هنا بحق ..

أولاً كان يملك ما يشبه (قصرية) الأطفال موضوعة فى ركن المكان .. وقد غلف قاعها برقائق الألومنيوم .. بالطبع كى يسهل تغليف الفضلات والتخلص منها .. وكانت هناك قارورة صغيرة تشبه ما يوجد فى المعامل ،

وقد امتلأت بسائل من الواضح أنه بول .. هذا رجل من الطراز الذى يحتفظ ببوله وبرازه خارج الحمام ولا يتخلص منهما بسبيل المجارى العادى .. أنا لم ألق كثيرين من هذا الطراز ، ولا أفهمهم البتة ..

ثم كانت هناك صيدلية معلقة على الجدار ، فتحتها فوجدت بعض الأدوية الضرورية المعتادة للملاريا والأميبا إلخ .. لكن كانت هناك بعض العلب الغريبة التى لم يكتب عليها أى شىء على الإطلاق ، اللهم إلا عبارة :

(هذا الدواء تجريبى وليس للاستعمال التجارى ـ بتصريح خاص من إدارة الطعام والدواء FDA) .

وكانت تحوى أقراصًا لم أر مثلها من قبل ..

كان ذلك عندما سمعت صوت من يفتح الباب ..

* * *

« وداعًا يا أبى أرجوك صلِّ من أجلى ..

لقد كنت أنا وصمة عار الأسرة ..

حاولت أن تعلمنى الصواب من الخطأ ..

خمر كثيرة .. غناء كثير ..

يدهشنى كيف تعاملت مع الحياة .. »

سمعت صوته يترنم بهذه الأغنيـة الإنجليزيـة العتيقـة وهو يغلق الباب خلفه ..

الآن تدفق الأدرينالين أنهارًا فى دمى ، وصرت علـى استعداد للوثب .. للركل .. للصراخ .. للعض .. للقتل ..

بينما هو مازال يترنم :

« وداعًا يا أصدقائى ..

من الصعب أن أموت ..

بينما الطيور تغرد فى السماء .. »

أسمع صوت انتزاع ثياب وتطويحها .. ثم باب الحمام ينفتح ..

الآن أنا واقـف ـ فى أسـوأ حـال ـ وراء سـتار من البلاستيك يحيط بالمغطس .. لم يكـن هنـا مغطـس لكنهـا بالوعـة فـى الأرض تحت الـدوش .. وكنــت أعـرف أن الأحمق سينهى يومه بالاستحمام ..

« وداعًا يا صديقى المخلص ..

لقد عرفنا بعضنا منذ كان عمرنا تسعًا وعشرًا .. »

كان يقف أمام مرآة الحمام يدندن لنفسه كعادة كل من يدخلون الحمام ، وجرؤت على أن أطل قليلاً من وراء الستار لألقى نظرة .. صدمنى الرأس الأصلع والوجه الخالى من الشعر تمامًا .. كتمت أنفاسى وعدت إلى مكمنى .. إذن (مايك) أصلع تمامًا .. ولابد أن لديه جمتين وشاربين مستعارين على سبيل (الغيار) كما يملك المرء سروالين إن كان ثريًا ..

وأعدت تأمل موقفى ..

إن جوارى هنا سلاحًا هو أداة لمسح البلاط المبتل يداريها وراء ستار المغطس .. لو بقيت مكانى فلسوف يجدنى وعندها إما أن يتخلص منى - لو كان موقفه غير مشروع - أو يستدعى الأمن ويملأ الدنيا صراخًا لو كان موقفه مشروعًا .. كلا الحالين لا أحبهما ..

وهكذا اتخذت قرارى ، وهو ما زال يولينى ظهره ، ولا أحسب أنه سيرى وجهى فى المرآة ..

أمسكت العصا بكلتا يدى ، ثم أزحت الستار .. وهاااآن .. بكل ما فى دمى من أدرينالين جريت نحو الرجل الأصلع الذى يتأمل وجهه باستمتاع فى المرآة ،

وهويت على مؤخرة رأسه بالعصا .. داعيًا الله أن تكون الضربة قوية بحيث يفقد وعيه ، وألا تكون قوية إلى حد أن تجرحه ..

« وداعًا يا أبى أرجوك صلّ من .... آى !! »

شعرت به يتهاوى من ورائى ، وأنا أفتح الباب فأثب إلى الخارج .. عينى تقع على الجمة الملقاة على الفراش .. أفتح الباب سريعًا وأثب إلى الخارج ، وأوصده خلفى ..

حمدًا لله لا يوجد أحد هنا .. وإلا صار تفسير موقفى عسيرًا بحق ..

حين ألقى (برنادت) ستكون لدى بعض أسئلة حاسمة عن براعتها فى التخطيط ..

* * *

١٠ ـ قبس من الضوء ..

وقالت لى (برنادت) وهى تفتح باب غرفتها :

ـ « تعال .. إن الإنترنت هى السبيل الوحيد للإجابة عن كل هذه الأسئلة .. »

ومشيت وراءها عبر الغرفة التى لم أدخلها قط فى حياتى .. الغرفة التى اعتبرتها مقدسة وملأتها خيالاتى بكل طريف نفيس من الغرائب .. هاتان قدماى تطآن الموكيت الوردى الذى تحبه (برنادت) كثيرًا ، وثمة رائحة عطرية غريبة يفوح بها كل شىء .. قد تبدو رومانسية بلهاء أن أقول إن هذه رائحة أنفاسها ، لكنها الحقيقة ، فصفها كما تريد ..

لو كانت الظروف مختلفة لتكلمت عن غرفة (برنادت) وكتبت ألف بيت شعر ، ولربما جمعت ملاحظاتى عنها فى كتاب من ألف صفحة يضاف لتراث البشرية الأدبى ، أما الآن فأنا فى مزيج لا يصلح إلا للجلوس فاحتساء بعض المياه الغازية ، فمراقبة (برنادت) وهى تداعب بسرعة خارقة مفاتيح جهاز حسابها الشخصى النقال ..

سألتنى وهى تنتظر ظهور البيانات :

ـ « تقول إنه أصلع الرأس تمامًا .. »

ـ « وبلا شارب .. »

ـ « هذا غريب .. يمكن فهم الشعر لكن الشـارب نـوع من المبالغة فى التنكر تزيد الأمور تعقيدًا .. وهو معرض باستمرار للسقوط فى أول طبق حساء ساخن .. »

ثم قالت وهى تدق على المنضدة (بكلوة) يدها فى عصبية :

ـ « الأمر واضح .. هذا الرجل ضحية إشعاع بدوره .. ومن المؤكد أن ما يتعاطاه هو الـ DTPA .. وقد حصـل عليه بنفس الطريقة التـى نفذهـا (شيلبى) .. تقـول إن العبوات كانت تحمل شعار الـ FDA ؟ »

ـ « نعم .. »

قالت وهى تواصل الكتابة :

ـ « إن الـ FDA .. تحتفظ بسجلات الأدوية التى تسمح بها أو تجدها للأشخاص الذين يعانون أمراضًا غير معتادة ..

عـام ١٩٨١ لاحـظ بـاحث فـى الإدارة وهـو يراجـع الحاسب الآلى ، أن جرعات كثيرة من دواء (بنتاميدين)

قد تم صرفها فى العام الماضى فى (سان فرانسسكو) .. إن العقار يستعمل لعلاج مرض الـ FDA ، وكان من المعتاد ألا يصرف إلا مرة كل عام أو كل عامين .. دق هذا جرس إنذار لدى الرجل .. هه ؟ لماذا ظهرت كل هذه الحالات من الـ PCP فى عام واحد فى بلد واحد ؟ وبمزيد من التدقيق عرف العلماء أن هناك مرضًا جديدًا ظهر فى (سان فرانسسكو) ، وهذا المرض يسبب زيادة الإصابة بطفيل الـ PCP .. وسرعان ما صار اسم المرض هو (متلازمة فقدان المناعة المكتسب) .. الإيدز .. »

هززت رأسى موافقًا .. أعرف هذا حيث لا توجد سجلات دقيقة يستطيع الكمبيوتر أن يستنتج كل شىء .. أفرغت ما بالعلبة فى جوفى وتجشأت فى رقة حتى لا تصاب (برنادت) بالذعر ..

سألتها :

- « هل تنوين إرسال بريد إليكترونى ؟ »

- « كلا .. هذا يستغرق وقتًا ثمينًا .. بل سألجأ إلى المحادثة المفتوحة مع خبير هناك .. وهو سيبحث بنفسه ويعطينى الإجابة .. »

ودارت المحادثة على الشاشة .. ساد الصمت فلم أعد أسمع سوى قعقعة المفاتيح ، وكنت منهكًا بعد هذا اليوم الطويل الذى بدأ بغزاة الفضاء يقتحمون حجرتى ، وانتهى باقتحامى غرفة الرجل .. لهذا شعرت بأن جفونى تزداد ثقلاً ، ولم أعد قادرًا على متابعة ما يدور على الشاشة ..

لا بد أن ربع ساعة مر ، أفقت بعده لأجد أننى راقد على أريكة مريحة ، وثمة غطاء من الكريتون على ساقى .. نهضت مذعورًا كأننى ضبطت متلبسًا ، فقالت لى (برنادت) وهى ما زالت أمام الكمبيوتر على المنضدة :

ـ « لا تقلق .. استمر فى النوم فما زالت المحادثة مستمرة .. »

لكنى نهضت ورحت أفرك رأسى كما تفعل الأسود عند الاستيقاظ ..

بعد دقائق انتهت فأغلقت الاتصال ، وراحت تستعرض نص المحادثة .. ثم قالت لى وهى تجرع بعض القهوة (متى صنعتها ؟) :

ـ « يوجد اثنان قاما بصرف جرعات عالية جدًا من حمض الـ DTPA على قدر علم الخبير .. الأول يدعى

(هارولد ماكلسكى) وهو عامل أمريكى ، كان يعمل فى موقع (هانفورد) قرب (ريتشلاند)(*).. حدث هذا عام ١٩٧٦ .. وكان الرجل يعمل فى وحدة خاصة لإنتاج الإميريسيوم ـ وهو مادة تفوق البلوتنيوم خمسين مرة قدرة إشعاعية ـ وعمله يقضى بأن يراقب فصل الإميريسيوم ، والعمل من وراء زجاج رصاصى سميك محركًا يديه من خلال قفازين ..

« حدث خلل معين فى دورة حمض النتريك المسئولة عن فصل الإميريسيوم من الراتنج .. وفجأة انفجرت الأنابيب ، وغطت المادة المشعة وحمض النتريك وجه (ماك) .. وامتصت رئتاه كمية إشعاع لم تدخل قط رئتى إنسان من قبل فى تاريخ الذرة ..

« قام الفريق الطبى بحمل الرجل إلى حوض من الماء والصابون ، ومزقوا ثيابه وراحت ممرضة تغسله من الزجاج المهشم والدماء والحمض ، ثم نقل إلى غرفة طوارئ الإشعاع .. وكانت مشكلة الحروق التى ملأت وجهه وجلده هينة ، لأنها ستعالج بالطرق التقليدية التى

(★) قصة حقيقية .

يعرفها أى طبيب .. المشكلة الحقيقية هى كميات الإشعاع التى امتصتها أعضاؤه الداخلية ..

«كانت هذه هى المرة الأولى التى فكر فيها الأطباء فى استخدام مادة (الكالسيوم داى إيثيلين ترايامين بنتا أسيتيك أسيد) للخلاص من الإميريسيوم ، وهى عامل كلابى يلتحم بالفلزات الثقيلة ويؤدى إلى إفرازها بسهولة من الجسم مع البراز أو البول .. وهكذا ـ بموافقة خاصة من إدارة الأطعمة والدواء ـ بدأ الأطباء فى إعطائه جرعة هائلة من هذا العقار ، وأدركوا أن جسده يتخلص من المادة بكفاءة فى البراز والبول ..

« كانت المشكلة التى لم يتوقعها الأطباء هى فقد الزنك من جسد الرجل بسرعة مخيفة .. إن العقار يخلصه من الزنك كما يخلصه من الإشعاع ، وهنا فكروا فى استخدام العقار متحدًا بالزنك .. وبالفعل نجحت الفكرة ..

«ظل الأطباء ثلاثة أشهر كاملة يتوقعون كارثة ما ، لكن لم يصب الرجل بشلل النخاع ولم يمت بالعدوى .. واستعادت عيناه إبصارهما بعد عمى طال .. فى النهاية عاد إلى داره لا يحمل من آثار الحادث إلا ندوبًا على وجهه ..

« هذا هو الحادث الموثق بعناية لدى الإدارة .. بعد هذا فى عام ١٩٩٧ حدث تسرب مماثل للإميريسيوم فى نفس المفاعل ، وتعرض فنى شاب يدعى .. (مايكل نورتون) لجرعات عالية لكن حالته كانت أفضل ، وقد استجاب بسهولة إلى العلاج بعقار DTPA .. لكن الأطباء وجدوا أنه من الأفضل أن يتعاطى هذا العقار بالفم ولفترات أطول قد تصل لثلاثة أعوام .. وقد قاموا بإمداده به بتصريح من إدارة الطعام والدواء .. للأسف لاتوجد سجلات عن الرجل بعد تعافيه من الإشعاع .. يبدو أنه غادر الولايات المتحدة ، وإن كانت الإدارة ترسل له بانتظام ما يحتاج إليه من العقار مخلوطاً بالزنك ، ومن الواضح أن تحمل هذا النوع يكون أسهل .. »

قلت لها فى حماس :

ـ « طبعاً نحن نعرف الآن أنه فى الكاميرون ، وأنه يعمل فى وحدة (سافارى) .. »

قالت وهى تعيد قراءة المكتوب :

ـ « نسيت أن أقول لك إن كلاً من الرجلين كان يعانى من اضطهاد المجتمع ، وحالة الذعر التى تقابلهما كلما عرف

الناس قصتيهما .. لا أحد يأكل بجوارهما ، ولا أحد يصافحهما ، الأول كان شيخًا ، أما الثانى فكان شابًا لم يجد فتاة تقبل الزواج منه .. ولنفترض لحظة هنا أنه عرف الخطر الذى يمثله على أحبائه من ثم قرر أن يتركهم طواعية »

ـ « هذا أدعى لتفسير محاولة (مايك) الهرب بعيدًا عن أى شخص يعرفه .. »

ـ « وهذا يفسر الشارب المستعار .. إنه يحاول أن يبدو بالضبط كما كان قبل الإشعاع .. »

قلت لها مفكرًا :

ـ « لكن هذا لا يفسر كل شىء .. لماذا أصيب بعضنا بالإشعاع ولم يصب البعض ؟ إننا جميعًا نتلقى نفس الجرعة .. »

ـ « الناس يتباينون فى استجابتهم للإشعاع .. نحن لا نعرف بالضبط من لمسه (مايك) ومن أكل معه ومن عانقه .. »

للأسف ما زالت القصة ملأى بالثغرات .. مئات الأسئلة

فى ذهنى تتدافع كالبيض حتى يهشم بعضها بعضًا .. حين أحاول العثور على السؤال لا أجده بسهولة ..

حقًا قد بلغ منى الإرهاق مبلغًا ..

* * *

« وداعًا يا أصدقائى ..

من الصعب أن أموت ..

بينما الطيور تغرد فى السماء .. »

* * *

١١ ـ رجل الإميريسيوم ..

بعد دقائق عشر كنا نعبر فرجة الأشجار خارج مسكن الأطباء ، قاصدين تلك الجهة المقابلة التى نصعد منها إلى الإدارة .. لا شىء إلا ظلام الليل وصوت كالنائحة وأضواء خافتة من بعض كشافات ..

إن (بارتلييه) سيعرف هذا كله ولسوف يتواثب ويترجرج ، ويصب جام غضبه على رأسى باعتبارى مجنونًا ، لكن (برنادت) ستفتح الكمبيوتر النقال الخاص بها ، وتعرض عليه المحادثة كاملة .. طبعًا لم أكن أعرف وقتها أن (بارتلييه) مريض متوعك لا تسمح حالته بسماع هذه الأمور ..

قلت لـ (برنادت) وأنا أمسك بيدها كى لا تتعثر فى الظلام :

ـ « يمكن القول إن (مايك) ليس مجرمًا .. إنه مجرد ضحية حاولت العودة إلى المجتمع .. »

كانت تلهث فى الظلام ربما انفعالاً أو بفعل البرد الذى بدأ يشتد على غير العادة هذه الليلة :

- « كان بوسعه أن ينذرنا .. إن جرمه كجرم مريض الدرن أو الجذام الذى يندس وسط الأصحاء ، ويشرب من نفس أكوابهم ، ويستعمل أدوات طعامهم بدعـوى أنـه لا يريد أن يشعر بالاختلاف »

ثم بلهجة حكيمة مبالغة فيها أضافت :

- « .. إن حرية المرء تنتهى حين تصطدم بحريات الآخرين .. من حق المريض أن يعيش حياة طبيعية ، ومن حق الآخرين أن يعرفوا أنه خطر عليهم .. »

لم أعلق وإن تمنيت التعليق .. أنتم تعرفون ضيقى الشديد بالمقولات المحفوظة الماسخة على غرار (القناعة كنز لا يفنى) .. إنها صحيحة لكن تكرارها قد جعلها كالعملة التى أنهكها التداول .. لم أعلق لأننا فى اللحظة ذاتها لمحنا من بين الأشجار لمعة خاطفة .. كأنما هناك من يجرب قداحة لا تعمل ، وشعرت بتيار من الهواء يمر جوار رأسى .. ثم تطاير بعض الملاط من جدار بجوارى ..

بدا لى هذا مألوفًا ثم فطنت إلى الحقيقة ..

- « هناك من يطلق الرصاص علينا من مسدس كاتم للصوت !! »

وفى اللحظة ذاتها كنت أجنبها من يدها متجهًا نحو إحدى الأشجار القريبة .. توارينا خلفها لاهثين .. لا أدرى إن كان يطلق الرصاص الآن أم لا ، ولم أعرف حقًا إلا حين سمعت غصن الشجرة يتهشم ..

همست (برنادت) مذعورة :

ـ « تبًا ! إنه يعرف ! »

ثم بصقت الغبار الذى وصل إلى فمها لسبب لاتنكره ، وهمست بصوت كالفحيح :

ـ « إنه مجنون تمامًا ! »

ـ « ولم ؟ إنه مسدس كاتم للصوت ، ولن يستطيع أحد معرفة من فعلها بنا حين يجدون جثتينا .. »

ثم نظرت من وراء كتفى ..

نظرت لسبب لا أذكره .. لكنى وجدت (مايك) واقفًا هناك والمسدس فى يده ، وابتسامة رقيقة حزينة على شفتيه ! متى دار من حولنا وكيف وجدنا ؟ تلك الأسئلة لا أملك الإجابة عنها الآن ..

جذبت كم (برنادت) لترى ما أراه فأطلقت شهقة ووثبت للوراء ..

قال (مايك) فى لهجة خجول كأنما داس على قدم سيدة فى الحافلة :

- « لو سمحتما لى فإننى أفضل الكلام فى مكان آخر .. أرجو أن ترافقانى إلى داخل الدغل .. »

كان المسدس فى يده بفوهته الطويلة السامة التى تذكرك بأفلام الجاسوسية ، وكانت حجته مقنعة جداً .. حجة لها صوت الرصاص وسرعته وقوته .. من الواضح أنه سيقتلنا هنا لو أرغمناه على هذا ..

وهكذا مشينا فى بطء بين الأشجار .. العشب الأسود الندى يتهشم تحت أقدامنا ، وثمة شعور يراودنى بأننا لن نقتل .. إن الأمر كله أقرب إلى نوع من لعبة المساكة ..

لا بد أننا مشينا نحو ثلاث دقائق ، حتى وصلنا إلى موضع خال بين الأشجار الإفريقية .. وهو قريب جداً بالمناسبة من الكوخ الذى كان ذلك الألمانى يجرى تجارب التجميد فيه .. لقد صار الكوخ الآن بقايا متفحمة لكن ذكرياته لم تمت بعد ..

سمعت صوته يقول فى الظلام :

- « توقفا .. »



لا بد أننا مشينا نحو ثلاث دقائق ، حتى وصلنا إلى موضع خالٍ بين الأشجار الإفريقية ..

أمسكت بكف (برنادت) الباردة وتوقفت دون أن أنظر إلى الوراء .. لن يطلق الرصاص .. لن يفعل ..

شلاك ! كان هذا صوت عود من الثقاب يحتك بالعلبة ثم شممت رائحة التبغ .. استدرت للوراء لأجده يشعل لفافة تبغ وقد استند إلى جذع شجرة غليظ .. وفى ضوء اللهب كان وجهه خاليًا من المشاعر .. لا يظهر كرهًا أو سرورًا .. ثم انطفأ العود ومعه تلاشى وجهه فى الظلام من جديد ..

قال لى كأنما يكلم نفسه :

- « لا مفر من أن ينكشف كل شىء فى النهاية .. ما كان السر ليبقى سرًا أكثر من هذا .. »

ثم أضاف وهو ينفث الدخان فى الهواء :

- « كانت ضربتك قوية لكنى بالطبع استطعت رؤية وجهك فى المرآة .. وحين أفقت استطعت أن أرى ما كنت تبحث عنه بالضبط وما وجدته .. بعدها بحثت عنك كثيرًا فلم أجد لك أثرًا .. كنت أعرف أن الخطوة التالية هى إبلاغ المدير ، لذا وقفت هنا لأقطع الطريق إلى مكتبه ، ولأرى كل من يحاول الوصول إلى هناك .. لم أحلم حين

اشتريت هذا المسدس من مغامر ألمانى هنا أننى سأستعمله يومًا ما .. كنت أحسب أن المسدس ضرورى لإفريقيا كما أن الزلاجات ضرورية لسويسرا »

ثم مسح وجهه بكفه فى حيرة كأنما هو فى ورطة عنيفة وقال :

ـ « الآن ماذا أفعل بكما ؟ لست ممن يحبون القتل ، لكنى قد صرت فى موقف لا يسمح لى بالاختيار .. إما أنا أو أنتما .. »

قلت له وقد ازداد يقينى بأنه لن يمسنا بسوء :

ـ « دعنى أعطك حلاً لا بأس به .. اتركنا وسنظل صامتين .. »

ضحك كثيرًا حتى خنقه السعال ، وأدركت أن اتزانه النفسى ليس على ما يرام .. فى الغالب هو تحت تأثير مشروب أو مخدر ما .. هؤلاء يضحكون ويبكون فى نفس الوقت حتى لتعجز عن فهم ماذا يفعلون بالضبط ..

ـ « هيى هى ! طبعًا .. طبعًا .. ما من ضريبة على الوعود ، وهذا هو وقت بذلها بسخاء .. هى هى ! الأمريكى الأحمق الثمل ـ بل والمشع كذلك ـ يمكن خداعه بسهولة .. هى هى .. »

ثم توتر كما توقعت وقال بصوت كالفحيح :

ـ « أنتما لا تعرفان كم من تدابير اتخذتها لأعيش هنا مجهولاً لا يعامله الناس كجرثومة الطاعون .. لقد كنت أشع كمفاعل صغير ، وكانت إبرة العدادات تقفز كلما مررت بجوارها .. توقع الأطباء أن أموت من يوم لآخر ، ولكنني ظللت حيًا بمعجزة ما .. لا أحد يفهم كيف ظللت حيًا بكل هذه الرادات المشعة داخلي .. فقط سقط شعر رأسي وشاربي كما فقدت للأبد أن أكون أبًا ..

« بعد أشهر عدة بدءوا يتكلمون عن تحسن حالتي وعن إمكانية مغادرتي المستشفى ، لكن شيئًا لم يعد كما كان .. وعرفت بسهولة أنني خطر داهم على البشرية .. تأكدت من هذا يوم هلك كلبي المدلل ، ويوم راح عداد (جايجر) يعوي بجنون حين وقفت جواره .. الحمقى لم يعرفوا لكني عرفت بسهولة .. وقررت أن أجرب حظي في مكان لا يعرفني ، عسى أن تزول لعنة الإشعاع التي تلاحقني ..

« هربت من حصار الأطباء لي ، وفررت إلى هنا لأن (سافاري) كانت بحاجة إلى فنيين .. مؤهلات مزورة بالطبع .. كان كل شيء يمضي كما رسمت له ، وقدرت أنه خلال خمسة أعوام سأكون قد تخلصت تمامًا من بقايا

الإشعاع .. ثم بدأت الوفيات .. وبدأ كل شيء يموت حين أتعامل معه .. إنني الرجل الذرى .. رجل الإميريسيوم الذى يتبعه الموت فى كل خطوة .. لا أحد يعرف هذا غيركما .. »

ثم ترنح قليلاً وقال :

ـ « من السهل الآن أن أقتلكما وأترككما هنا .. ستمر أيام حتى يجد جثتيكما أحد ، وعندها لن يعرف أحد من فعلها أبدًا .. لا أدرى ما سيحدث لوحدة (سافارى) غدًا ، لكنى أرجح أن الصخب سيدوم أيامًا ثم ينتهى .. سيقومون بتفتيش المكان مرارًا ، وفى كل مرة سيعلنون أنه نظيف . وفى النهاية ستعود (سافارى) إلى ما كانت عليه .. »

هنا ـ للغرابة ـ سألته (برنادت) سؤالاً عجيبًا بعض الشيء :

ـ « لماذا تجمع برازك وتتخلص منه فى القبو ؟ »

كان هذا آخر سؤال يمكن أن تسأله فتاة قد تتلقى طلقة فى رأسها بعد قليل .. لكنى فهمت أنها مثلى لا تتوقع حدوث شيء مخيف .. فى الغالب سينهار هذا الفتى ويلقى بالمسدس على الأرض ..

ضحك (مايك) كثيرًا حتى عاوده السعال .. ثم قال :

- « هى هى هى ! كلا .. ليست هذه مجرد عادة قذرة .. لقد طلب منى الأطباء فى الولايات أن أرسل لهم عينات أسبوعية من فضلاتى كى يقيسوا ما بها من (إميريسيوم) من حين لآخر .. كان من العسير الاحتفاظ بهذه العينات فى غرفتى طبعًا ، لذا أخفيتها فى القبو .. لم أجد قط الفرصة لإرسال هذه الشحنة الغريبة لأن الفئران وجدت الأكياس ومزقتها .. »

- « وراحت تواصل مهمة نشر الإشعاعات فى (سافارى) .. »

- « بالضبط .. قبل أن تموت من التلوث طبعًا .. »

ثم ألقى بقايا السيجارة ، ومسح فمه .. وقال وهو يرفع المسدس :

- « الآن يمكن أن ننتهى من هذا .. أرجو أن تقفا وتوليا وجهيكما شطر هذه الشجرة .. »

إنه لا يمزح إذن .. هو لا يعلم غير ما يفعله ..

قلت له بلهجة مفعمة بالكياسة والتعقل :

- « فكر يا (مايك) .. أنت لست قاتلاً .. أنت مجرد ضحية .. »

ـ « بل أنا سفاح حقيقى .. لقد قتلت كثيرين بالإشعاع ، فماذا سيحدث لو قتلت اثنين فقط بالرصاص على سبيل التجديد ، وحتى تستقيم حياتى من جديد ؟ هذا لن يجعل جرائمى أكثر بشاعة .. »

كلام منطقى طبعًا ولا أستطيع إلا أن أوافق عليه .. كان عقلى يحاول البحث عن مخرج .. لو هاجمته الآن كما يحدث فى القصص ، فلن أجد الوقت الكافى .. إنه على مسافة مأمونة .. ويقظ إلى حد ما ..

لا أدرى كيف ولا متى وجدنا أننا ننصاع لأوامره .. أدرنا له ظهرينا وتلمسنا الشجرة فى نوع من انعدام الوزن الشديد .. قلت لها همسًا :

ـ « لن يفعل .. أؤكد لك أنه لن يفعل .. »

ـ « لا تراهن على ذلك .. »

عدت أهمس بكلام كثير حين تعالى صوت (مايك) المتحشرج شبه المجنون يقول :

ـ « والآن .. سأطلق الرصاصة الأولى على أكثر واحد أمقته هنا .. إن الرصاصة الأولى ستجعل مستقبل البشرية أفضل والعالم أنظف ! انتباااه ! »

ودوى صوت الـ (بوف) المميز للمسدسات الصامتة .. صوت سدادة الزجاجة التى تنتزع ..

فى نفس اللحظة نظرت ملهوفًا إلى (برنادت) فوجدتها ملهوفة تنظر لى .. كلانا وجد أنه لم يمت .. لهذا حسب كل منا أن الآخر هو الأول .. رائحة البارود تملأ المكان ..

ونظرت إلى الوراء لأجد ما توقعت ..

(مايك) على الأرض ، وقد سقط شعره المستعار ، والدم ينز كالنهر من ثقب فى صدغه ..

* * *

« وداعًا يا أبى أرجوك صلّ من أجلى ..

لقد كنت أنا وصمة عار الأسرة ..

حاولت أن تعلمنى الصواب من الخطأ ..

خمر كثيرةً .. غناء كثير ..

يدهشنى كيف تعاملت مع الحياة .. »

* * *

الخاتمة ..

« ليس من المعتاد أن تكون هناك خاتمة في (سافاري) ، لكن وجودها لن يؤذي أحدًا على كل حال »

قال (بارتلييه) وهو يتفقد حجرة (مايك) التي صارت الآن كأبي هول لا سر له ..

ـ « غريب .. غريب .. لكن كل شيء يؤكد أن القصة صحيحة .. وقد قمنا بدفن جثته في قبر خرساني لا يسمح بتسرب شيء .. إن أحدًا من أقاربه في الولايات لم يطالب بالجثة .. »

ثم أضاف وهو يلوح بذراعيه المكتنزتين :

ـ « الآن كل شيء نظيف في (سافاري) وقد تأكدنا من هذا .. »

ثم نظر لي وسألني :

ـ « كيف عرفت أنه لن يقتلكما ؟ »

قلت في لهجة من يقول شيئًا مفروغًا منه :

ـ « لقد احترقت سفنه كلها يا سيدى .. صار جوادًا خاسرًا .. وما كان قتلنا ليؤجل اكتشاف الحقيقة إلا بضعة أيام .. لقد تأمل موقفه لدقيقة ثم وجد أن الهدف الصحيح الذى يجب تصويب الرصاصة إليه هو صدغه .. لقد كان هذا الفتى أحوج إنسان إلى جزيرة خالية من البشر .. هناك ربما استطاع أن يبدأ من جديد .. »

ـ « لقد فر إلى الكاميرون لهدف كهذا .. لكنه اكتشف سريعًا أن العالم أكثر ازدحامًا مما كان يظن .. »

علقت (برنادت) بدورها :

ـ « كان من حسن حظه انتشار إشاعة الطبق الطائر المزعوم هذه .. لقد جعل هذا تفكير الجميع ينحصر فى زاوية واحدة .. وضاع وقت ثمين فى بحوث لاطائل من ورائها .. »

ـ « يبدو أن أوبئة الحضارة ـ ومنها الخيال الواسع ـ قد تسربت إلى مجتمع (أنجاواندييرى) البكر .. »

خرج (بارتلبيه) من الحجرة ، فهمست (برنادت) فى أذنى بمكر لعوب :

ـ « برغم كل شىء أعتقد أنك كنت واثقًا من أنه سيقتلنا .. »

ـ « لماذا ؟ »

قالت وهى تغادر الحجرة :

ـ « الكلمات الأخيرة التى همستها فى أذنى قبل انطلاق الرصاصة .. لقد كانت صادقة بالتأكيد قادمة من قبو روحك ! إن المحتضرين لا يجدون البال الرائق كى يقولوا سخفاً »

قلت بصوت عال :

ـ « ولربما كان الهلع قد جعلنى أخرف ! »

لكنها فى الغالب لم تسمع هذه العبارة الأخيرة ..

★ ★ ★

سلمى بماذا تفكرين ؟ سلمى بماذا تحلمين ؟

(حتى لو كانت الكاف غير مشددة)

★ ★ ★

قالت (حاتمة) وهى ترمق الليل البهيم بالخارج :

ـ « إن هؤلاء القوم من (سافارى) لم يصدقوا حرفاً مما قلناه ولم يعودوا يا (ماتاتجا) .. »

قال (ماتاتجا) وهو ينظر إلى حيث تنظر ، وقد بدأ الضوء الأحمر يتشكل على ملامح وجهها :

ـ « إنهم بيض يا (حاتمة) .. والبيض لا يصدقون السود أبدًا .. إنهم يعاملوننا كقرود هبطت فورًا من فوق الأشجار ، ثم إننا فقراء .. والعالم لا يعطى أذنه إلا للأثرياء .. »

ثم إنه بحث عن البندقية القديمة فأمسك بها ، وأحكم غلق القميص الرث على كرشه العملاق .. فالليل بارد ولم يعد المشى بالقائلة الداخلية محببًا ..

سألته فى قلق :

ـ « هل ستحاول التفاهم معهم ؟ »

قال فى سخرية :

ـ « وهل سيفهمون ؟ إننى فقط أريد أن يعلموا أننى الرئيس هنا .. »

ـ « كن حذرًا .. إننا تحت رحمتهم .. »

قال وهو يفتح باب الكوخ :

ـ « لن أبدأ بشىء .. لكنى سأطلق الكثير من هذه البندقية العجوز لو ارتبت فى شىء .. إن البندقية العجوز ما زال لديها ما تقول .. »

وخارج الكوخ كان الرجال واقفين ينظرون فى رهبة .. سرهم بعض الشىء أن (ماتاتنجا) هنا هذه المرة ، وأنه

سيتصرف .. إن (ماتاتجا) العجوز البدين يعرف ما ينبغى عمله ..

اتسع بياض عينيه فى الظلام وبحزم نظر للرجال ، ثم أمرهم :

ـ « اتبعونى .. »

تبادلوا النظرات الصامتة ثم مشوا خلفه ..

مشوا خلفه فى تؤدة نحو الجسم العملاق الجاثم فى الغابة ، والذى يشع أنوارًا حمراء وصفراء ، والذى بدا بابه ينفتح الآن ..

ماذا سيحدث بعد هذا ؟ كنت أتمنى الإجابة .. لكننا لا نجيب عن أسئلة كهذه فى وحدة (سافارى) .

د. علاء عبد العظيم

أنجاو انديرى



[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع : ٦٨٣٦ / ٢٠٠٠

المطبعة العربية الحديثة



روايات
مصرية
للجيب
سافارى
؟؟؟
؟؟؟ !!!!
د. أحمد خالد توفيق
www.dvd4arab.com
Hany3H
الثمن فى مصر ٢٠٠
المؤسسة العربية الحديثة
العدد القادم
الدواء الذى يقتل ..